مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ سَبَأ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة سبأ

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة سبأ

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ
(٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)
لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ
سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) ﴾

ابتدأت واستهلت افتتاحية سورة سبأ بمثل ما ابتدأت به سورة الأنعام بالحمد لله سبحانه وتعالى الذي له جميع ما في السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ يقرر الله سبحانه وتعالى بأن الحمد له وحده لا شريك له ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فخصص الحمد الذي هو الشكر والثناء والمدح الكامل له سبحانه وتعالى، وأن جميع ما أنعم به على العباد منه وحده لا شريك له، بما يُثبت أن له العبودية والألوهية لا شريك له، وأن حمد العباد يجب أن لا يكون إلا لله عَزَّ وجل، وفي هذا مدح لربنا تبارك وتعالى بما هو حق له جَلّ جلاله. ولفظ الجلالة ﴿ لِلَّهِ ﴾ بعد الحمد يفيد تقرير الألوهية له سبحانه وتعالى، وكذلك تقرير صرف العبادة له عَزَّ جاهه؛ والتي منها الحمد. وفي صرف الحمد له عَزَّ وجل اعتراف من العبد بربوبيته وألوهيته ومُلكه، وتوحيده بالعبادة جَلَّ جلاله. مما يفيد أن من لوازم هذا الإخبار من الله تعالى لعباده، أنه يلزمهم دوام الشكر على ما أنعم عليهم من الإيجاد، والأرزاق، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهدايتهم وتوفيقهم.

وارتبط الحمد في الآية الكريمة بنعمة خلق ومُلْك السماوات والأرض وما فيهما ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة كل جهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات وما فيها

من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وقد شملت دلالة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كل ما هو مرتفع وعلا من الأفلاك والأجرام، كالشمس والقمر والنجوم وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلما هو عليها أو خارج على سطحها، أو بداخلها في بطنها. فاستوعبت ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان ومما غاب عنه، فقصرت حواسه عن إدراكه، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن. وأفادت كلمة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ قصر الملك والخلق والإنشاء والإيجاد من العدم له وحده عَزَّ وجل، فله الاختراع والابتداع عَزَّ وجل. وما يتبع ذلك من وجوب الحمد والطاعة لمن له كل شيء سبحانه وتعالى، فلا يليق بمخلوق أن يخرج عن طاعة خالقه ومدبره سبحانه وتعالى، أو يعبد غيره، أو يشرك معه غيره في ملكه وخلقه العظيم.

وبعد أن عمم سبحانه في مطلع السورة ومطلع الآية الكريم أن الحمد له عَزَّ وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يؤكد ويبين تبارك وتعالى أنه كذلك ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فكما له الحمد في الأولى التي هي الدنيا فإن له الحمد في الآخرة سبحانه وتعالى، على جميع إنعامه التي منها كمال ثوابه وعدله وحكمه عَزَّ وجل. قال السعدي رحمه الله تعالى: لأن في الآخرة يظهر من حمده، والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به، بكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك. حتى أهل النار ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم[١] وفي هذا البيان تنبيه وتعليم للعباد بأن حمده والثناء عليه ليس قاصراً على الحياة الدنيا، بل شامل للحياة الدنيا والآخرة، فالحمد لله سبحانه وتعالى مستمر في الدنيا والآخرة، فلا ينقطع أبداً.

ثم يذكر سبحانه صفتين عظيمتين له عَزَّ وجل ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فهو الحكيم لا غيره، وهو الخبير لا غيره. فإن الله تعالى متصف بالحكمة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ التي تعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، فهو حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، مِن الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من انتقالهم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. وكذلك من صفاته العظيمة أنه ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ التي تعطي دلالة العليم بدقائق الأمور وعواقبها قبل حدوثها. فسبحانه وتعالى خبير بمواضع ومصالح

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٧٥/٤)

الأشياء، ومنافعها ومضارها، فلا تخفى عليه عَزَّ وجل بوادر الأمور، ولا عواقبها، فربنا تبارك وتعالى عليم بكل ما يعمله وما يكسبه العباد من خير وشر، فلا يفوته من أعمالهم شيء. فإن الله عَزَّ وجل خبير بما يناسب ويصلح لكل عبد من عباده، من قليل أو كثير، ومن نوع ومقدار، وحال وزمان ومكان، فمعرفته عَزَّ وجل أكثر وأخبر من معرفة العبد بنفسه، وبالتالي فإن اختيار الله تعالى للعبد خير وأحسن من اختيار العبد لنفسه، وذلك لكمال علمه وحكمته، مع نقص علم العبد وحكمته عن نفسه، فضلاً عن غيره. وإذا أدرك العبد هذه الدلالات كان من أسعد الناس بما يعطيه الله تعالى، ويقدره له. وأن في فهم هذه الدلالات أثر عميق على طمأنينة وهدوء النفس، ورضاها واستسلامها لله تعالى.

وبعد أن ختم الله تبارك وتعالى الآية السابقة بأنه هو الحكيم الخبير، يُظهر في هذه الآية التي تليها شيئاً من دلائل ذلك، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ إن الله تعالى الحكيم الخبير ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: ما يدخل في جوفها من مياه الأمطار، والبذور، وما يُدفن فيها من الأموات، وما يُدفن فيها من الكنوز، وما يدخل فيها من الحشرات والهوام، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، لأن الولوج هو الدخول في الشيء. وكذلك يعلم ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا ﴾ من النباتات، ومن المياه والمعادن التي تُخْرَجُ منها، والكنوز التي دُفِنت فيها، ومن الهوام والحشرات، وغيرها مما لا يعلمه إلا هو عَزَّ وجل. وكذلك يعلم ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الملائكة، والأمطار، وما يقضي به في الأرض ومن فيها ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا ﴾ أي: وما يرتفع ويصعد إلى السماء، من الملائكة، والأعمال، والدعوات، والأرواح، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. مما يفيد أن عليكم أن تعلموا أن ربكم لا تخفى عليه خافية، وأنه هو الذي يدبر الكون كله بإرادته، وعلمه وحكمته، فلا يخفى عليه شيء مما ظهر فيها وما بطن.

ثم يختم تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بإطماع عباده في رحمته ومغفرته ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ فإن ربكم هو المتصف بأنه واسع الرحمة، وواسع المغفرة، فاطلبوا رحمته ومغفرته بطاعته، وسؤاله. فهو الرحيم بأهل التوبة. وهو الغفور الذي يغفر ذنوبهم إذا تابوا منها واستغفروا ربهم. بما يفيد: الحث لهم بأن يتوبوا إلى ربهم ويستغفرونه، ويطيعوه. ليتحقق لهم الخير في الدنيا والآخرة.

وبعد أن أظهر الله سبحانه وتعالى عظيم وكمال ملكه وتدبيره، وجلال علمه وحكمته، وأنه هو الغفور الرحيم يُظهر ويبين أنه مع كل هذه الدلائل هناك من يكذب وينكر البعث والنشور، ونهاية هذه الحياة الدنيا، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ

عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ فالكافرون المنكرون للبعث ينفون قيام الساعة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ فالمنكرون للمرسلين، ولكتب الله تعالى، وللآيات الكونية التي يشاهدونها، ويتعايشون مع أحداثها ودلالاتها فإنهم ينفون وقوع الساعة، فيقولون ﴿ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ لا تأتي الساعة نهائياً، فهو نفي يقطعون ويجزمون به عدم حدوثها البتة، بما يفيد أنهم يقولون: لا حياة إلا الحياة الدنيا فقط. مما يفيد المبالغة في الجزم بنفي قيام الساعة، التي هي قيام القيامة. وبالتالي يترتب على هذا القول منهم: بأنه لا حساب ولا عقاب، وبناء عليه يكون العبث، والإجرام، والظلم منهم في هذه الحياة الدنيا.

ثم يكذبهم الله تبارك وتعالى ويرد على زعمهم الباطل بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ قل لهؤلاء المنكرين للساعة أيها الرسول ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ ليس الأمر كما زعمتم، فلتأتينكم الساعة. فأفاد حرف ﴿ بَلَىٰ ﴾ النفي الجازم لبهتانهم، بإبطال نفيهم وقوع الساعة، وإثبات ما بعده، وهو وقوع الساعة. ومن قوة البيان والجزم بوقوع الساعة أن التحق القسم بهذا النفي لاعتقادهم وإثبات وقوع الساعة ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي ﴾ وهو القسم بالله عَزَّ وجل من الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرَبِّي ﴾ قسماً بربي ﴿ لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ لتحصلن لكم الساعة، وما فيها من البعث والنشور، وما يتبعها من الحساب والجزاء.

ثم يؤكد ذلك ببيان مصدر ذلك العلم عن قيام الساعة ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ فإنه من عالم الغيب الذي يبين لكم ما غاب عنكم، مما سيكون ويقع، فإن الله عالم الغيب سبحانه وتعالى ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ ﴾ لا يغيب عنه ما غاب عنكم، ولو كان قدراً يسيراً بوزن وقدر الذرة التي هي أصغر الأشياء حجماً، فكل شيء مندرج تحت علمه ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ سواء كان في السماوات أو كان في الأرض. حتى ولو كان وزن الشيء وقدره مثل ذرة في السماوات أو في الأرض، فإن الله تعالى يعلمه، فلا يغيب عنه. بل ﴿ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ ﴾ بل ولا أصغر من وزن الذرة ومقدارها ﴿ وَلَآ أَكۡبَرُ ﴾ ولا أكثر من الذرة في حجمها، بما يفيد المبالغة في العلم الذي يحصر كل شيء بأنه تحت علم الله سبحانه وتعالى، ويزداد التوكيد للعلم بأن بلغ علمه عَزَّ وجل من الدقة أنه مكتوب في كتاب عنده سبحانه وتعالى ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ

﴿وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ مثبت في كتاب واضح، ومبين لكل شيء حدث أو يحدث، أو سيحدث. وهو اللوح المحفوظ. بل ورد ذلك بأسلوب الحصر ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ الذي يفيد كمال الإثبات له في اللوح المحفوظ.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن الغاية والهدف من وقوع الساعة، وحصول البعث والنشور، فإنه ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ليثيب الذين صَدَّقوا بالله تعالى، وصَدَّقوا برسوله، وعملوا بشريعة الله التي أنزلها عليهم. فهؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم، ولهم رزق متصف بالكريم الذي يفيد المبالغة في نوعه ومقداره، وأبلغ ذلك الرزق وأثمنه هو بلوغهم الجنة، وتحصيلها. مما يفيد أن الأصل في الرجوع إلى الآخرة هو لإثابة الذين جمعوا بين الإيمان والعمل بدين الله تعالى، فانقادوا لربهم بكمال الطاعة والامتثال.

فجمعوا بين الإيمان والامتثال والانقياد ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالأمر الأول هو: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والأمر الثاني المعطوف على الأول هو: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الامتثال بدين الله تعالى. ثم أكد سبحانه وتعالى لمن جمع تلك الصفتين بالتحديد والتعيين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفتين: القلبية، والعملية ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ فإنهم هم المحظوظون والمخصوصون بالمغفرة، المتضمنة لمحو الذنوب وسترها، وكذلك لهم ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ وحصولهم على الجنة التي أعدها الله تعالى فلهم رزق متصف بالكريم الذي يفيد المبالغة في نوعه ومقداره وسعته، هو بلوغهم الجنة، وتحصيلها.

وقد أفادت الصفة الأولى: وهي الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التصديق الاعتقادي. أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما والصفة الثانية: هي ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي هي عبادة لله تعالى بطاعته. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الجمع بين هاتين الصفتين ليتحقق بهما المغفرة والرزق الكريم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ مما يبين العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع لتحصيل نتيجة المغفرة والرزق الكريم. بل ورد القصر بالتعيين والتحديد لمن قام بهما ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ فقد جمع الله عَزَّ وجل بين الإيمان وعمل الصالحات بحرف العطف. فعطف عمل الصالحات على الإيمان.

فإن الذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله عَزَّ وجل به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بجزاء من لم يؤمن، وصد عن سبيله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ والذين كان سعيهم في آياتنا بالكفر والتكذيب لها، فإن لهم عذاب السعير، بما يفيد أنهم بذلوا جهدهم في التكذيب بها ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ ﴾ فالسعي يفيد بذل الجهد، وكذلك يسعون وهم ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ والمعاجز المغالب والمسابق، فيسعون بالكفر في آيات الله تعالى وهم يحسبون أنهم مغالبين لأمر الله تعالى بالعناد. فيحسبون أنهم يفوتون على ربهم سبحانه وتعالى. قال القرطبي رحمه الله تعالى: مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا، وأن الله تعالى لا يقدر على بعثهم في الآخرة. وظنوا أنا نهملهم

[١] فالمعاجزين مبالغة لكلمة معجزين، بما يفيد قوة المناهضة لدين الله عَزَّ وجل، بالإنكار والتثبيط لغيرهم. وهي تشمل كذلك: أنهم ظانين ومعتقدين ومقدرين في عقولهم أنهم يسابقون لله تعالى فيما يريد، فيعجزون الله في إرادته. لأنهم ظنوا أنهم لا يُبْعَثُون، وأنه لا جنة ولا نار، مما يدل على عمق الكفر المتجذر في قلوبهم، حتى أنهم يجحدون ما يرون من آيات الحق، ويكذبون ما يسمعون من دلائل وبراهين حجج الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بجزائهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ فهؤلاء لهم من الله سبحانه وتعالى عذاب ﴿مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ أي: سوء العذاب. قال قتادة رحمه الله تعالى: الرجز: سوء العذاب، الأليم: الموجع[٢] فإن لهم عند الله سوء العذاب المؤلم والموجع من شدته. مما يبين التحذير، وكذلك العلم بمصير من كفر، ومن ظن الظنون التي لا تليق بعظمة الله تعالى وقدرته الظاهرة في السماوات والأرض، وفي أنفسهم. ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩﴾

لَمَّا ذكر سبحانه وتعالى أمر الذين ينكرون البعث، والذين يسعون في إبطال آياته، ذكر بعدهم بالمدح والثناء على الذين يؤمنون بآياته سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ فالذين أُعطوا العلم من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم، وجميع المسلمين؛ يرون أن القرآن العظيم الذي أنزله ربك عليك أيها الرسول هو الحق، وهو الصواب، ويهدي إلى سبيل الله تعالى، وهو الإسلام الذي شرعه الله لعباده. وبما يفيد أن جميع ما يُضَادُّه فهو باطل.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٧/١٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٣/١٩)

وتبين الآية المفارقة الكبيرة بين المنكرين الذين تكابروا، واستعلوا على الحق وبين المصدقين بما جاءهم من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد اختلاف الناس في قبول الحق على جميع مستويات الحياة، وشؤونها، فهناك المعارضون، بجميع أصنافهم، وهناك المؤمنون، فإذا كان هناك من ينكر الحق من الله تعالى العزيز الحكيم، فإنه بالتالي هم الفجرة الذين ينكرون الحق والحقائق فيما بينهم، ومع غيرهم من الناس، فلا يعطون الحق من أنفسهم، بل يقولون بالباطل ويتزعمونه، ويشهدون بالزور والكذب. ومقابلهم هناك المؤمنون الأمناء في الحق والحقوق.

وقد بدأ مطلع الآية الكريمة ببيان الرؤية ﴿ وَيَرَى ﴾ التي تجمع بما بعدها بين العلم بالشيء، وبين الاعتراف به وقبوله، وإعلانه وإشهاره ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ فالمؤمنون الذين يصدقون بالحق، هم الذين أُوتوا العلم، مما يدل على أن من كان ضدهم فهم أهل الجهل والباطل. كما أن في دلالة تسميتهم بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ ما يفيد عظيم علم هذا الدين، وعظيم شرفه، فقد سماهم سبحانه وتعالى بصفة العلم، وبأنهم أوتوه وحَصَّلُوه، على التفاضل فيما بينهم من التحصيل. وهذا يبين أن علم الشريعة أعظم العلوم وأشرفها. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفيه علم عظيم، هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه. فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فظاً غليظاً حتى إذا أسلم رَقَّ قلبُه، وامتلأ صدره بالحكمة، وانشرح لشرائع الإسلام، واهتدى إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم[١] ما يفيد عظيم علم هذا الدين، وعظيم شرفه. وعظيم أثره على العقل والنفس والسلوك، والأخلاق، وقدرته على تغيير وترويض الطباع، وما اعتادت عليه النفوس من الباطل، وترسيخه للحق في القلوب، والعمل بمقتضاه حتى ولو كان الحق على نفسه.

وقد شملت جملة ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ سواء من سبق لهم العلم من أهل الكتاب، أو المسلمون عموماً، من الصحابة رضي الله عنهم، وكل من يأتي بعدهم من المؤمنين. قال مقاتل رحمه الله تعالى: الذين أُوتوا العلم هم مؤمنو أهل الكتاب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل جميع المسلمين، وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وهو أصح لعمومه[٢] أي: أن دلالة جميع المسلمين هو الأصح. فدلالة النص الكريم تجميع وتستوفي جميع أولئك، لأن مؤمني أهل الكتاب الذين صدقوا وآمنوا هم من أهل العلم، باعتبار ما سبق مما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، وكذلك باعتبار إيمانهم ودخولهم في الإسلام، وكذلك الصحابة باعتبار أنهم آمنوا فأصبحوا من أهل العلم، وجميع المسلمين باعتبار إيمانهم بما علموا فصدقوا

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢١/٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٨/١٤)

واتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم. فإنهم جميعاً يرون أن ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فهم يرون بالعلم اليقيني أن الذي أنزله الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة هو الحق المنافي والمضاد للباطل، بما يفيد أن ما يضاده باطل.

كما أنه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ويرشد من آمن به واتبعه بالعمل والامتثال فإنه يرشده به إلى سبيل الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وكذلك هو ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود عند خلقه بما أنعم، وبما هدى وأرشد وعَلَّم، وهو الموصوف بالمحامد والثناء، وبكل خير وفضل، وبالتالي هو المحمود على كل شيء، وعلى كل حال.

ثم بعد أن ذكر سبحانه وتعالى موقف أهل الإيمان يذكر عَزَّ وجل موقف أهل الكفر، وطريقتهم ومنهجهم مع الرسول الذي أُنزل عليه الحق صلى الله عليه وسلم. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قال الذين كفروا لبعضهم البعض على سبيل السخرية والاستهزاء: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هل نرشدكم، على سبيل الإعلام فيما بينهم، ولمن يأتي ويَقْدُمُ على مكة، بما لا تعلمون من أخبار رجل له أقوال مُستبعدة، لا تُصَدَّق، ويقصدون به الرسول صلى الله عليه وسلم. وجملة ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ تفيد الإدلال على أمر ترغب الناس في معرفته. فيكون قولهم بينهم هو نتيجة لتتبعهم أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ولمن يسألهم من خارج مكة عن خبر ما سمعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأوردوا اسم الرجل بأسلوب النكرة ﴿رَجُلٍ﴾ من باب الاستخفاف والتجهيل، والاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما سيقولونه من القول عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يُدَلُّ على مجهول في أمر مجهول(١) وأوردو إخبار بعضهم لبعض بأسلوب السؤال، الذي يحمل صيغة التعجب والاستخفاف والاستنكار مما قاله عليه الصلاة والسلام ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ هل نرشدكم إلى رجل يُعْلِمُكم بالبعث بعد الموت، وأوردوا الإعلام بكلمة الإنباء

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٦٦/٣)

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ لأن الإنباء يحمل دلالة تعظيم الخبر، ولإفادة تهويل ما سمعوا، بأنه لا يمكن أن يصدقه أحد مما فيه من عظيم الافتراء. فالإنباء يأتي على سبيل تعظيم ما يتناوله الخبر، الذي يخبرون به. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة[1] فتسميته بالنبأ من باب التهويل والتعظيم للذي لا يصدقه أحد.

مما يفيد أنهم كانوا في انشغال بشأن النبي صلى الله عليه وسلم، ويتتبعون أقواله وأخباره، وبما يفيد أنهم سمعوا الحق، من الحجج والبراهين. وفي قولهم لبعضهم البعض، ولغيرهم من الوافدين على مكة ما يفيد الدلالة والإرشاد على أمر يستحق أن يعرفوه لقوة نكارته حسب ظنونهم الباطلة. مما يدل على قوة الكفر والحنق الذي يحملونه في قلوبهم على النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم يسعون لإبعاد الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن دعوته.

ثم ذكروا ذلك النبأ، بما قاله عنهم وأثبته عليهم سبحانه وتعالى. ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أنكم إذا مُتُّم وتمزقتم، وتفرقت أجسادكم، وتقطعتم كل تقطيع، وتآكلت اجسامكم، وأصبحتم رفاتاً وتراباً ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أنكم سَتُخلَقُون خلقاً جديداً، وتبعثون من قبوركم أحياء، وتعودون من جديد إلى ما كنتم عليه، وما كانت عليه أجسادكم أثناء حياتكم، ثم تحاسبون. فهو استنكار لإعادة الخلق، واستنكار للبعث، ويتبعه استبعادهم للحساب والجزاء. فهم يُهَوِّلُون ويُضخمون هذا الأمر تكذيباً به، واستحالة لوقوعه واستبعاداً له نهائياً، من أجل أن يستشهدوا به لغيرهم على بطلان ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

بما يفيد: إنما الحياة هي الحياة الدنيا فقط، ولا بعث، ولا حساب، ولا جزاء. وهذا الاعتقاد يجعل من الإنسان شخصاً مفترساً لغيره بمجرد ورود الفرصة، لأنه لا يعتقد أن هناك رقيب ولا حسيب. فيظهر بهذا عظمة الدين الذي يُعَلِّم العباد ويرشدهم بأنهم محاسبون ومجزيون على ما يكون ويحصل منهم، من خير أو شر. فالحمد لله تعالى على نعمة الإيمان وفضله على المؤمنين، إذ يضبط سلوكهم في السراء والضراء، وحين البأس، وفي المنشط وفي المكره، وفي السر وفي العلانية، فيأمن غيرهم الشر منهم.

ثم يتمادى أولئك الكفرة في طغيانهم، بالاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم، فَيُثبتُ الله تعالى قولهم، فيقول عَزَّ وجل عنهم ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ فيقولون فيما بينهم على سبيل السخرية، وبصيغة السؤال والاستفهام الذي يحمل الاستنكار والاستبعاد ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ سؤال يُحمّلونه

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٤٨١)

احتمالين، باستفهامين: الأول ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ هل هذا الرجل ارتكب اختراعاً وتَقَوُّلاً من الكذب على الله سبحانه وتعالى بشيء لم يقله الله عَزَّ وجل؟ أي: وكأنهم يعلمون الحقيقة من الله تعالى، فجعلوا من أنفسهم عالمين بالحقيقة، من شدة تطاولهم على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يلحقون الاحتمال الأول بالاحتمال الثاني ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ أو أنه فَقَدَ عقله وصوابه؟ وبدأ يتكلم بما يتكلم به من فَقَدَ عقله من الجنون. مما يبين أن الجاهل والمعاند والمكابر يَعْمَد إلى تبرير اعتقاده الباطل بكل ما يستطيع، ومن ذلك الطعن في الحق، وفيمن يحمل الحق، واختراع ما يمكن أن يسوقه لنفسه، حتى يصدقها بما قالت من الكذب والافتراء. مما يفيد أهمية الانتباه لمخاطر الزيق، وتزيين الباطل، وتبريره حتى يسلكه. مما يلزم التمسك بالشريعة من غير تأويل فاسد لا يعتمد على دليل. فهذا الدين قائم على الأدلة الكونية المشاهدة، وعلى الأدلة النقلية عن الله تعالى.

وهنا يُجيب ويرد الله تبارك وتعالى عليهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ فليس الأمر كما زعموا، فكلمة ﴿بَلِ ﴾ تنفي قولهم وتثبت ما بعده، بل إنهم هم الذين تاهوا، وهم الذين يفترون على الله تعالى الكذب، فإن حقيقة أمرهم أن جميع من لا يؤمن بالآخرة ﴿فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ فإنهم واقعون في عذاب الآخرة الدائم الذي لا ينقطع عنهم، وكذلك هم في الضلال يسيرون، والذي سماه الله تعالى ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ وهم اليوم واقعون في الشقاء والضلال البعيد عن الحق بعداً متناهياً عن الصواب. وفي وصفه بالضلال البعيد ما يبين التوغل في ظلماته ولُججه، وبما يعني وقوعهم في البعد العميق عن الحق، فقد تباعدوا عن الحق تباعداً بعيداً جداً، فبمقدار توغلهم في الضلال كان بعدهم عن الحق.

فمن دقائق البيان وإعجاز معانيه أن الله تعالى جمع بين العذاب وبين الضلال، لبيان قوة الالتصاق والترابط بينهما، وذلك لوجود العلاقة المتلازمة بينهما، فمن كان في الضلال فقد استوجب العذاب. وكذلك حدد توغلهم في الضلال بالبعيد، الذي يفيد التباعد العكسي والمضاد للحق، بحيث أن مقدار تباعدهم عن الحق هو بمقدار ذلك التوغل في الضلال. فكلما أوغلوا في الضلال تباعدوا بقدره عن الحق. مما يفيد أنه كلما انحرف الإنسان عن مسار الحق فإنه قد تباعد عنه في الضلال بنفس مقدار تعمقه في الباطل، فليحذر من تلك المسافة.

ثم يرد الله سبحانه وتعالى عليهم، بما ينفي خداعهم للناس، ويُبطل قولهم وافتراءهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ يستحث سبحانه وتعالى

أولئك المنكرون ليوم البعث والحساب والجزاء إلى التدبر في ملكوت السماوات والأرض، وما فيهما من الآيات والحجج والبراهين الدالة على كمال قدرته سبحانه وتعالى ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ سؤال استنكار عن غفلتهم عما يحيط بهم من حجج الله تعالى، فهو استفهام توقف وتدبر، فأين عقولكم عن هذا التسخير الذي ترونه بأبصاركم. وهو في نفس الوقت توبيخ لهم على عدم اتعاظهم بما يرون ويشاهدون ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أفلم ينظروا إلى ما تنبهر به العقول من عظمة الخلق الذي يدل على عظمة الخالق، وكمال قدرته. فإن نظروا ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أفلم يروا السماء والأرض أمامهم وخلفهم، فأينما استداروا رأوا تلك المبهرات أمامهم وخلفهم، فلا تنحجب عنهم أينما كانوا، وعلى أي اتجاه كانوا. فإنها آيات باهرات لمن كان له قلب واع، وأن هدفه الحق، فيبحث عنه ويتبعه.

فإن دلائل الخلق العظيمة تدل على كمال القدرة على البعث والنشور والحساب والجزاء، والجنة والنار. وفي ذلك طرد لجحودهم من أن الحياة هي الدنيا فقط، وأن ليس هناك بعث وحساب وجزاء. وكذلك فيه إبطال لما يعتقدون من استحالة إعادة الأجسام بعد أن تكون رمياً، وإنذار لهم بالتفكر والتأمل والتبصر. وفيه إيقاظ وتنبيه لهم ولغيرهم، بل وتم البيان لهم ولغيرهم بالوعيد الشديد، فإن لم يعتبروا بتلك الحجج فليس أمامهم إلا العذاب ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ فهناك أمران يتوعدهم ويهددهم الله تعالى بهما إن لم يحصل منهم الاتعاظ بالتدبر والتأمل.

الأول ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ فإن أردنا أن نعاقبهم بالخسف، فإننا نخسف بهم في الأرض، ونجعل الأرض تبتلع هؤلاء المنكرين للبعث، فنغيبهم في باطن الأرض ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وإن نشاء ننزل عليهم من السماء ﴿كِسَفٗا ﴾ وهو العذاب، أي: قطعاً من العذاب الذي ينزل عليهم من السماء، بما يفيد أن الخلق هو خلق الله تعالى يدبره ويسيره كيف يشاء، فيجعل الأرض التي يعيشون عليها هي مصدر عذابهم بعد أن كانت مصدر نعمة ونعيم، بأن تخسف بهم فتهلكهم، وإن شاء الله تعالى جعل السماء التي ينزل منها الغيث الذي يفرحون بنزوله، وينعمون بخيراته، جعل ذلك مصدر عذاب لهم، فينزل عليهم من السماء العذاب، بدلاً من الرحمة. فإن الملك كله له جَلَّ جلاله. فأين وجه استحالة البعث، وإعادتكم بأجسامكم كما كنتم؟ بما يستثير التفكر والاتعاظ، والعودة للحق، وإعمال العقل، لا إعمال الهوى بالعناد وحب الانتصار للأفكار الرديئة.

ومن دقائق البيان أنه سبحانه وتعالى أعلمهم بمصدر العذاب، بأن يكون خسفاً من تحتكم، أو كسفاً من فوقكم، ولم يحدد لهم واحدة منها، ليكون ذلك أبعث للترقب والفزع والخوف، وجعل الخيار لمشيئته عَزَّ وجل، فإن شاء كان بالخسف، وإن شاء كان بالكسف.

ثم يشير تبارك وتعالى إلى أن فيما ذكره لدلائل وحجج وبراهين تُوجِب التصديق الكامل بكل ما يأتي من عنده سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ إن في تلك الدلائل والحجج من البراهين السابق ذكرها ﴿لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ لحجة وبرهان ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ لكل عبد متصف بالتوبة والانكسار والعودة إلى ربه عَزَّ وجل، والتي تعني الرجوع بعقله وفهمه وتفكيره وقلبه وطاعته وخضوعه إلى الله تبارك وتعالى، وإلى علمه جَلَّ جلاله وآياته وأدلته وبراهينه. فيؤمن بما يعظه الله تعالى به، فيتلقاه بالإجلال والتعظيم، فإن تلك الآيات تُعيده لربه عَزَّ وجل، فكلما رأى آية أناب لربه بالخضوع والرجوع والانكسار لخالقه عَزَّ في علاه. فيتقبل المواعظ، ويتعظ بما يُوعظ به، ولا يستكبر، ولا يعاند الحق بالباطل، ولا يقدم شيئاً على أدلة وحجج ربه سبحانه وتعالى، بل يُخضع عقله وقلبه لبراهين وحجج الله عَزَّ وجل، سواء الكونية أو النقلية. مما يعلم الإنسان كيف يكون مع آيات الله تعالى الكونية، وكيف يكون مع آيات الله تعالى النقلية. فالحمد لله تعالى على هذا العلم وهذا البيان العظيم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

ينتقل السياق الكريم من الله العلي القدير إلى شأن عبده ونبيه داود عليه السلام، وما كان عليه من الإنابة والفضل من ربه سبحانه وتعالى، ليفيد الوعظ به في الطاعة والامتثال، وكيف مَنَّ عليه سبحانه وتعالى، ومكنه في الأرض ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ يخبر الله تعالى ببيانه الكريم عما امتن به على نبيه داود عليه السلام، لطاعته وإنابته لربه عَزَّ وجل، فجمع له بين

النبوة والملك، فمكنه منه أقوى تمكين، فتردد الجبال معه التسبيح، وكذلك الطير، وطَوَّع وألان له الحديد، ليعمل به ما يريد. وقد تقدم البيان أداة التحقيق المسبوقة بلام القسم ﴿وَلَقَدْ﴾ التي أفادت التأكيد بأنه عَزَّ وجل قد أعطاه ﴿ءَاتَيْنَا﴾ والإيتاء هو الإعطاء تكرماً، وقد نسب الإيتاء له عَزَّ وجل، لإظهار الحفاوة والتكريم والتشريف لعبده داود عليه السلام. ثم ذكره وعينه باسمه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ وذلك زيادة في التكريم بالبيان والإظهار. ثم أعاد سبحانه وتعالى إظهار العطاء من لدنه جَلَّ جلاله ﴿مِنَّا﴾ في قوله تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا﴾ من عطائنا وعنايتنا، وفي هذا تأكيد المزيد من العناية والتشريف والإكرام لداود عليه السلام.

ثم جمع تبارك وتعالى مجموع ما أعطاه في معنى ودلالة ﴿فَضْلًا﴾ التي تحمل الكثرة والتنوع، والمبالغة فيما أعطاه وأكرمه به ربه عَزَّ وجل. وفي هذا ما يدل على الاصطفاء من لله تعالى، وأن الله عَزَّ وجل هو المتصرف، وأن من أطاعه وأناب إليه له الفضل من الله تعالى في الدنيا والآخرة، فأنيبوا إلى ربكم بكمال الطاعة والتذلل والانكسار.

ثم أفرد جَلَّ جلاله بالذكر شيئاً مما امتن به عَزَّ وجل على نبيه داود عليه السلام، بما يفيد أنه لا مستحيل على الله تبارك وتعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ فقد أمرنا الجبال الصم، والطير في جو السماء بأن تردد معه ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ وهو الترجيع والإعادة بالصوت لما يقوله نبينا داود عليه السلام، ولم يذكر هنا تبارك وتعالى الذي ترجعه وتعيده معه، لتفخيم المقول، الذي هو التسبيح، كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ ومن دقائق البيان العظيم أن جاء الفصل بين الجبال والطير بلفظة ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ فلم يقل تبارك وتعالى: يا جبال ويا أيتها الطير أوبي مع داود. بل قال تعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ وفي هذا الفصل والإفراد لكل صنف ما يُبرز ويُظهر كل نوع منهما على حده، أي: لوحده، من الجبال والطير، فيزداد الْمُخَاطَب به تأملاً وتفكراً، سواء في ترديد الصوت من تلك الجبال الصُّم الراسيات؛ ذات الضخامة والثبات، أو في ترديد الطير الصغير في حجمه، وخفة وزنه، وكثرة حركته. فكل منهما يحمل صورة مفارقة ومغايرة ومتباينة عن الآخر. وفي هذا بلاغة في المقصد، وفي السياق البديع، وفي استثارة ذهن المتلقي للخطاب والبيان. وقال أبو هريرة رضي

الله عنه: كان إذا سبح أجابته الجبال والطير بالتسبيح والذكر[١] وقال قتادة رحمه الله تعالى: أي: يصلين مع داود إذا صلى[٢] فلا يمنع أنه يشمل ذلك كله، لما في الصلاة من التسبيح كذلك.

ويضيف تبارك وتعالى مزيداً من البيان عن بعض مفردات التسخير لداود عليه السلام ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وطوعنا له الحديد، بحيث يصبح ليناً لنبي الله داود عليه السلام، ليصنع منه ما يشاء. وقد ذكر عَزَّ وجل في سورة الأنبياء أنه عَلَّمَهُ صِناعة الدروع، فقال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وعلمنا داود صناعة السلاح والدروع الواقية من بأس الحرب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: اللبوس عند العرب: السلاح كله، درعاً كان أو جوشاً، أو سيفاً، أو رمحاً[٣] والجوشن هو: اسم للحديد الذي يُلبس من السلاح. مما يفيد أن العلم والابتكار والاختراع هو هداية وفضل من الله تعالى على الإنسان. وأن من إنعام الله تعالى كذلك على العباد أن علم داود عليه السلام ما يتعلق بالحديد، ثم أبقاه الله تعالى، فيتناقله الناس جيل بعد جيل. ويتطور استخدامه بفضله عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بما أمر به داود عليه السلام من الصناعة ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فأمر تبارك وتعالى داود عليه السلام بثلاث أوامر: الأول: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ وهي الدروع الواسعة. قال القرطبي، والشوكاني رحمهم الله تعالى: أي: دروعاً سابغات. والسابغات: الكوامل، الواسعات. يقال: سبغ الدرع والثوب وغيرهما، إذا غطى كل ما هو عليه، وفضل منه فضله[٤] فالسابغات هي الدروع الواسعة التي تفي بتغطية من يلبسها حتى تفضل عن حاجته. مما يدل ويفيد أهمية اتقان العمل، بأن يكون على أحسن ما يمكن أن يكون، وأن منهج الله تعالى وشريعته قائمة في تشريع العمل والإنتاج على الاتقان، سواء في الصناعات، أو العمل المهني، أو الزراعي، والعمراني، أو التجاري، أو الإداري. فكل أداء من المسلم يجب أن يكون على أكمل ما يمكن أن يكون عليه. مما يتطلب من العامل في عمله أن يبذل أقصى الجهد في الأداء.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٢٥٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣١٩)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦/٣٢٩)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٧١) والشوكاني، فتح القدير (٤/٣١٥-٣١٦)

والأمر الثاني: الإرشاد لداود عليه السلام بمنهجية التصنيع، لتحقيق أعلى درجات الجودة ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ والسرد: هو نسج الدروع، ومعنى سرد الدروع إحكامها، وأن يكون نظام حلقها غير مختلف. فقدر المسامير في حلق الدروع بحيث لا تكون الحلق صغيرة ضعيفة، ولا كبيرة ثقيلة. وذكر ابن جرير الطبري الأقوال في ذلك رحمه الله تعالى: أنها المسامير التي تكون حلق الدرع. لأنها كانت قبل ذلك صفائح. وقيل: قَدِّر المسامير في حلق الدرع، حتى يكون بمقدار، لا تغلظ المسمار، وتضيق الحلقة، فتقصم الحلقة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالسرد: ثقب الدرع حين يشد قتيرها[١] أي: رؤوس مسامير حلق الدرع. فقدر المسامير في حلق الدروع بحيث لا تكون الحلق صغيرة ضعيفة، ولا كبيرة ثقيلة.

قال ابن زيد رحمه الله تعالى: التقدير الذي أُمر به هو في قدر الحلقة: أي: لا تعملها صغيرة، فتضعف، ولا يقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة، فتثقل على لا بسها[٢] وجميع الدلالات متعلقة بدقة الجودة إلى أقصى ما يمكن. مما يبين أهمية الإتقان في الصناعة، بحيث تستوعب حاجة المستخدم لها، من غير عناء، ولا قصور عن حاجته. وهذا يتطلب أن تكون هناك إدارة للتصنيع، وبيان معايير الجودة، وأن يعمل العامل من خلالها، كما يتطلب ذلك القدر الضامن للجودة من المتابعة للإنتاج. وجميع ذلك يبين عناية دين الله تعالى بما يضمن جودة الأداء، وأن هذا التشريع تشريع رباني من الله العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء خلقه، وطالب وأمر عباده بالإتقان والإحسان في جميع شؤنهم. كما يفيد هذا عناية الإسلام والقرآن بوضع قواعد الإنتاج، وما يسمى اليوم بالإدارة الصناعية.

ومن دقائق البيان أن التقدير من قوله تعالى ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ ما يفيد التفويض في القياس، بأن يعمل فكره وتصميمه وانتاجه، بحيث يحقق الجودة. مما يبين أهمية التفويض للعامل الْمُنتِج بأن يبذل فكره في القياس، باعتبار أنه المباشر للعمل. وأن التوجيه يكون بالجودة المطلوبة، وعليه أن يحققها في عمله.

والأمر الثالث: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ والزم يا داود أنت ومن معك الصلاح. وقد وردت هنا عامة، لتشمل الصلاح في الدين، وفي العمل الصناعي، وفي بيعها، وفي جميع ما أعطاكم من النعم. مما يفيد أهمية التعميم في بعض الأمور لشموليتها، وعدم تخصيصها بحسب الحال والمقام. ثم يعزز ذلك تبارك وتعالى بأنه يُبْصِرُهُم ويَرْقُبُهم ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ بصير بأعمالكم وأقوالكم، وبالتالي مراقب عليكم، فلا يخفى شيء عن علمه عَزَّ وجل مما يكون منكم ومن غيركم. وقد ورد البيان الرقابي بدقة عالية، فبدأها سبحانه وتعالى بالتأكيد

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٢٢٣-٢٢٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣١٦)

﴿إِنِّي﴾ التي تضمنت نون التوكيد الملتصقة بضمير المتكلم، الذي هو الله سبحانه وتعالى، ليعطي بيان القدرة، والأهمية، والتفخيم والتبجيل والعظمة. ثم أفادت ﴿بِمَا﴾ شمولية ما بعدها من أعمالهم ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أراكم وأسمعكم، وأعلم ما أنتم فيه من أمر. مما يفيد الرقابة الربانية لكم، كما أنها وردت على سبيل التخصيص ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بكم أنتم، بالرغم من أن الله تعالى بصير بكل الخلق، ولكن في التخصيص زيادة تنبيه وتوكيد وإثارة اهتمامهم بما يجب أن يكونوا عليه. وورد بصيغة الجمع، بمعنى أعلم ما تعملون جميعاً أيها الْمُخَاطَبُون.

ومن فوائد ذلك في الحياة العملية والإدارية أهمية الصلاح في الأداء: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ ويجب أن يكون ركيزة ومنهجاً للعاملين في كل قطاع، فهو أمر من الله تعالى، ومنهج إسلامي رباني. وكذلك أهمية المراقبة والمتابعة ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالأولى أن تكون الرقابة من المؤمن مع ربه سبحانه وتعالى، فإن الله تعالى بما يعمل العامل بصير. والثانية: أن تكون من جهة رقابية خارجة عن إطار الْمُنْتِج، بحيث تلاحظه، وتقيس درجة الأداء والإنتاج، لمنع المتهاون من تهاونه في جودة الأداء.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إظهار ما أنعم الله تعالى به على نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وكما سخرنا لأبيه داود تسبيح الجبال والطير، وعلمناه صنعة السلاح فإننا سخرنا لابنه سليمان الريح ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾ وهي العاصفة من الريح الشديدة ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾ أي: تسير بالغداة الذي هو أول اليوم مسيرة شهر. والغدوا هو الوقت من أوله صباحاً إلى الزوال. أي: إلى منتصف النهار ﴿وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾ وتقطع في رجوعها المسافة التي تستغرق شهر، فإنها تقطعها في آخر النهار. فالرواح هو العودة المقابلة للغدو، والرواح من بعد الزوال إلى الغروب، أي من منتصف النهار إلى نهاية النهار، الذي هو بداية الليل. فتسير بالعشي مسيرة شهر الذي هو الرواح، أي أن سرعتها في أول النهار سرعة مسيرة شهر، وفي آخره تسير مسيرة شهر من حيث الزمن، وذلك من قوة وشدة سرعتها.

فأطلق البيان الكريم على الغدو الذهاب، وأطلق على العودة: الرواح. قال قتادة رحمه الله تعالى: تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسير شهر إلى آخر النهار. فهي تسير في اليوم الواحد مسير

شهرين[١] ذهاباً وعودة، ليتبين قدرة الله تعالى في تسخير الرياح لسليمان عليه السلام، وكذلك منحه للرياح تلك القوة من السرعة، وقوتها في حملها لسليمان عليه السلام. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: فكان يغدوا من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسير شهر للمسرع[٢] وقال كذلك رحمه الله تعالى: لَمَّا شغلت نبي الله سليمان الخيل عن الصلاة فعقرها، أبدله الله خيراً منها، وأسرع، وهي الريح[٣] مما يبين عظيم النعمة التي أنعم الله تعالى بها على نبيه سليمان عليه السلام، كما يفيد ذلك أن من ترك شيئاً لله عَزَّ وجل عوضه الله تعالى خيراً منه. فيبين ذلك للعباد ويرشدهم أن عطاء الله عَزَّ وجل لا تحده حدود أبداً، فعلى المؤمن أن يقدم طاعة الله تعالى على كل شيء، ليجد من الله سبحانه وتعالى ما يسره به، عاجلاً أو آجلاً، أو عاجلاً وآجلاً، وأن يخلص في ذلك لله تعالى، ليس من أجل تحصيل البديل وإنما رغبة ومحبة في طاعة الله عَزَّ في علاه.

وقد اجتمع في هذه الريح: السرعة والشدة، من القوة والبأس، وكذلك طاعتها لسليمان عليه السلام، وأنها طيبة، وكذلك رخاء في نفسها عليه، وعلى ما يريد، فهي طوعة له في حملها له، وفيما يبعثها إليه أن تجري به. ثم يخبر عَزَّ وجل بكمال تدبيره وعلمه، فيذكر تبارك وتعالى أن مما أنعم به على سليمان عليه السلام هو ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ ﴾ فقد أذاب الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام ﴿ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ ﴾ الذي هو النحاس. والإسالة هي جعله سائلاً، مائعاً، منصهراً، ليصنع منه ما يحتاج إليه، وهذا من عظيم قدرة الله تعالى.

وقد نسب سبحانه وتعالى الإسالة له عَزَّ وجل، ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ ﴾ بما يفيد أنه هو الذي غير حالة النحاس من التماسك إلى الإذابة والجريان، وفي هذا عظيم التكريم لنبيه سليمان عليه السلام. مما يفيد أن الله تعالى قد جعل لكل شيء خصائص وهيئة يكون عليها، وأنه سبحانه وتعالى يُنْعِم على من يشاء بالتسخير والتيسير والتسهيل. وأن الذي يغير الشيء من هيئته إلى هيئة أخرى، فإنه قادر على أن يعيد الأموات إلى ما كانوا عليه قبل الموت، وأنه على كل شيء قدير، مما يعلم الإنسان القياس الصحيح، لتحصيل الفهم السليم، كما أنه سبحانه وتعالى سخر الأشياء للعباد بإمكانية تغيير حالتها من حال إلى حال، لينتفعوا بها، وفي ذلك ترقية للعقل بالفهم، والاستنتاج، والتعديل والتحويل. كما أن في ذلك وضع الأصول والقواعد الأساسية للتصنيع والابتكار. وأن الله تعالى قد أنعم على العباد بما خلق وسخر، ولولا تسخيره لهم لكانوا في شدة من الحياة. فالحمد لله رب العالمين.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٦/٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٣٥/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٦/٦)

ثم يذكر تبارك وتعالى نعمة أخرى، عظيمة، وذلك بتطويع الجن لنبيه سليمان عليه السلام ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ فمن جنس الجن من يعمل تحت إمرته، وأمره وتوجيهه، وليس جميع الجن، لأن ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ما يفيد بعضاً منهم، أو جنساً منهم، وليس جميعهم. فإن خلق الله تعالى لا يحصيه إلا هو سبحانه وتعالى، وأن ما يعطي الله تعالى ويسخره هو شيء من كثير مما عنده عَزَّ وجل. وهذا التطويع ليس من قوة سليمان عليه السلام، ولا من معرفته الشخصية، بل ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ليفيد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي طوعهم له، فيأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، ويفعلون ما يأمرهم به. ليبين سبحانه وتعالى عظيم قدرته، وسلطانه، وأنه يفعل ما يشاء، ويسخر ما يشاء لمن يشاء. بما يفيد: إنما عليك أيها الإنسان فقط الالتزام بطاعة ربك، فإنه يسخر ويسهل لك أسباب قضاء حوائجك، فيسخر لك العباد، ومحبتهم لك، وقضاء ما تريده منهم.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما يناله الجن من العذاب إن عصوا نبيه سليمان ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ومن يخالف من الجن شيئاً مما أمرناهم بهم، من طاعة نبينا سليمان عليه السلام ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ نعذبه بعذاب النار التي تستعر عليه، وجاء البيان بدلالة الذوق ﴿ نُذِقْهُ ﴾ الذي يفيد ويعبر عن قوة الإحساس والشعور بشدة النار المستعرة التي يتم تعذيب المخالف منهم بها. لأن حاسة الذوق هي أقوى الحواس في الشعور بالشيء.

ومن دلائل التكريم لسليمان عليه السلام أن الله تعالى هو الذي يعاقبهم، فنسب تذويقهم العذاب له عَزَّ وجل ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ كما أفاد التبعيض من قوله تعالى ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ التقليل، بأنه إن حصل منهم ذلك، بما يفيد قوة الامتثال التي شدهم وأمرهم الله تعالى به. كما أفاد التبعيض في قوله تعالى ﴿ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ قوة وكثرة أنواع عذاب الله تعالى، وأن ما يُذيقهم به من العذاب هو شيء منه، فكيف لو أذاقهم كامل العذاب. ليفيد التهويل، وبيان شدة وأنواع ودرجات عذاب الله عَزَّ وجل. اللهم إنا نسألك العفو والعافية، في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر تبارك وتعالى ببعض الأشياء والأمور التي يقوم بها الجن لنبي الله سليمان عليه السلام ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ فإن هؤلاء الجن الذين سخرهم الله تعالى لسليمان عليه السلام

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ ﴾ يطيعونه بالعمل كيف يشاء، ومما يشاء ويختار، ويريده منهم، فجعلهم بمنزلة الخدم تحت إمرته ومشيئته، ثم ذكر سبحانه وتعالى، شيئاً من أصناف ما يعملونه لسليمان عليه السلام ﴿مِن مَّحَـٰرِيبَ ﴾ وهي الأبنية القوية، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن، وصدره. قال مجاهد رحمه الله تعالى: المحاريب بنيان دون القصور، وقال الضحاك رحمه الله تعالى: هي المساجد. وقال قتادة رحمه الله تعالى: هي المساجد والقصور[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والمحاريب جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارَب منه العدو والمهاجم للمدينة. أو أنه يُرمى من شرفاته بالحِراب، ثم أُطْلِقَ على القصر الحصين[٢] فهو يشمل جميع أنواع الأبنية سواء كان حصناً، أو قصراً، أو مسجداً للعبادة، ومن ذلك جاء تسمية مقدمة المسجد بالمحراب، وكل ما يُختلى فيه للعبادة يُسَمَّى: محراب. فكانت الجن تعمل جميع ما يريده سليمان عليه السلام من أنواع الأبنية.

وكذلك مما تقوم به الجن من خدمة وأداء لنبي الله تعالى سليمان عليه السلام ﴿وَتَمَـٰثِيلَ ﴾ وهو جمع تمثال، وهي الأشكال التي تكون من الزجاج، أو النحاس، أو الحديد، أو من مجموعها، وتكون على هيئات مختلفة، ولم يحدد القرآن الكريم لها نوعاً مخصوصاً، ولا شكلاً معيناً ومحدداً، فهي تشمل جميع ما يريده سليمان منهم عليه السلام. وقد تكون على هيئة الحيوانات أو غيرها من المخلوقات، فإن كانت على شكل الحيوانات ونحوها فيكون أنها كانت مباحة لسليمان عليه السلام. وكذلك يصنعون له القدور ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ أي: ويعملون له الأحواض. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى ﴿وَجِفَانٍ ﴾ أن الجفان: جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة، ﴿كَٱلْجَوَابِ ﴾ وهي جمع جابية. أي: الحوض الكبير، يُجبى فيه الماء، أي: يُجمع[٣] أي: هي نوع من أنواع القدور الضخمة التي تشبه أحواض الماء التي يُسقى منها الناس والبهائم. قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره[٤] مما يبين قدرة الجن التي منحها الله تعالى لهم، فيعملون ما لا يعمله الإنسان، فإذا سخرهم الله تعالى أصبحت قدرتهم في خدمة الإنسان. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى التي جعلها متباينة في خلقه، كما يبين قدرة الله تعالى على التسخير والتطويع، وكيف تكون عملية الانتفاع إذا أرادها الله سبحانه وتعالى. وأنه هو الذي يوزع القدرات، وهو الذي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٣٥)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/١٣٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٢٧)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/١٨٢)

يسخر قدرات مخلوقاته لبعضهم البعض، وفق حكمته وتدبيره، ليعلم الإنسان عظيم قدرة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. فالذي سخر القُوى ودبرها هو الذي يدبر حال العباد، وهو الذي يبعث من يموت، ويعاقب ويجازي بحسابه لعباده عما كان منهم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما كانت تعمله الجن لنبي الله تعالى سليمان عليه السلام ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾ أي: قدور ثابتة لا تتحرك من سعتها وقوتها، وقوة ثبوتها في الأرض. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: وكانت القدور كالجبال، لا تُحَرَّك من أماكنها، يأكل من القدر ألف رجل[١] فالقدور التي كانت باسم ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾ هي أصغر منها حجماً، إذ كانت كالحياض والبرك التي تُملأ بالماء. وأما هذه فأضخم منها، وأضعاف مضاعفة عن حجم الجفان التي كالجواب.

ويفيد هذا التسخير أن الجن بما حباهم الله تعالى من القدرة والقوة قد سخرهم سبحانه وتعالى للإنسان في حين أنهم يرون أن الإنسان أقل منهم في أصل الخلقة، بأنهم خُلِقُوا من نار، والإنسان خلقه الله تعالى من الطين، فامتنع إبليس أن يسجد لآدم. كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ مما يعلم الإنسان بهذا التسخير أن يكون متواضعاً، وأن الله تعالى قد يسخر الأقوى للأدنى، ويسخر القوي للضعيف، فيتواضع في جميع تعاملاته مع غيره. وكذلك أن على المؤمن أن يدرك أن الفضل والتفاضل هو من الله تعالى، وأن ذلك العطاء لسليمان عليه السلام بفضل من الله عَزَّ وجل. فلا يغتر المؤمن بما بلغ فيه من الخبرة والعلم والمعرفة. وعلى المؤمن بأن لا ينسب ما هو فيه من النعمة لذاته، فإن الموفق والمعطي هو الله سبحانه وتعالى، عَزَّ وجل.

ثم يوجه تبارك وتعالى آل داود إلى شكره سبحانه وتعالى، وأن يقرنوا بين العمل والشكر ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ اعملوا بطاعة الله تعالى، والزموها شكراً وثناءً لربكم تبارك وتعالى، ثم بين عَزَّ وجل حال الكثير من الناس في الشكر، تنبيهاً وتحذيراً ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ فالشاكرون لله تعالى هم الأقل عدداً من جنس الإنسان. فلا تغتروا بالكثير غير الشاكر، بل الزموا الحق والحقائق. فإن الشاكرين لربهم قليل، فكونوا من هذا القليل الشاكر، مما يبين أن أكثر عباد الله تعالى لا يشكرون نعم الله تعالى، سواء بالطاعة والامتثال، أو باللسان، أو بالقلب والاعتقاد. وذلك أن ينسب النعمة لله تعالى اعتقاداً ولفظاً، وليس لجهده وحذقه وفكره واجتهاده، فإنما هي أسباب. فينسبها لربه ورب الأسباب، ومسخر الأسباب. مما يعلم ويرشد

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٢٧)

الناس: إلى أن يشكروا الله تعالى بقلوبهم، وبألسنتهم، وبطاعتهم لربهم شكراً لما أنعم به عليهم، وأن لا يَزْهُوا الإنسان ويفاخر بالأسباب، بل ينسب كل نعمة إلى الله سبحانه وتعالى.

يخبر الله تعالى بأن ليس للجن من العلم إلا ما مكنهم منه سبحانه وتعالى، وأنهم يجهلون ما وراء ذلك، كما يجهل الإنسان ما لم يُمَكّنه الله تعالى منه، فيقول جَلَّ في علاه ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ يبطل الله سبحانه وتعالى ما قد يعتقد بعض الناس من أن للجن علم بالغيب، وكذلك يبين لجنس الجن أن ما منحهم الله تعالى من قدرات لا يعني بذلك أنهم يعلمون الغيب، بل يفقدون العلم في أبسط مظاهر ما منعهم الله تعالى منه. ومن ذلك جهلهم بمشهد موت سليمان عليه السلام، الذي كانوا يأتمرون بأمره، بقدرة الله عَزَّ وجل ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ فعندما أمضينا حكمنا على سليمان بالموت، فمات، وفقد الحياة، ما عرفت الجن أنه مات وفقد الحياة، حيث كانوا يرونه متكئاً ومستنداً على عصاته ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ فلم يعرفوا بموته عليه السلام إلا بدلالة الأرضة التي نخرت وأكلت عصاه التي كان متكئاً عليها من طول الزمن، والتي هي ﴿ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ فأكلتها فسقط على الأرض عليه الصلاة والسلام. والمنسأة هي العصا. مما يفيد جهل الجن بما غَيّبَهُ الله تعالى عنهم، وأن علمهم علم محدود، قد قَدَّرَه سبحانه وتعالى. وبهذا فإن الله تعالى يُعَلِّمِ عباده من الجن والإنس بمحدودية علمهم وعِلْمَ مخلوقاته من الأحداث التي يقضيها بحكمته. فَعَلَّمَ الإنسان أن الجن قاصرة العلم بالرغم مما منحها الله تعالى من القدرات الخارقة، وعَلَّمَ الجن بأن لا تغتر بما منحها الله تعالى من العلم والقدرات. فلو كانت تعلم الغيب لعلمت بموت سليمان من حين موته، بل جهلت الواقع الماثل أمامها من موت سليمان عليه السلام، حتى سقط على الأرض.

وبعد سقوطه أدركت الجن قصور علمها ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ فقد كانت الجن تمر بسليمان وهو مستند على عصاه، وتعمل وفق ما أمرهم به طيلة الزمن الذي مكثه ميتاً، وهو متكئ على عصاه. مما يدل على أنه كان وقتاً طويلاً جداً، إذ تقادمت العصا، وبدأت الأرضة تنخر فيها، حتى تآكلت فسقط سليمان على الأرض عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ﴾ فلما سقط سليمان عليه السلام على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ ﴾ تحقق لها العلم الأكيد، بالدليل القاطع ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ فتبين للجن بالدليل القاطع أنهم لو كانوا يعلمون الغيب

كما كانوا يظنون ما مكثوا في الخدمة طيلة وفاة سليمان وهو مستند على عصاه. فقد دلها ذلك على جهلها، وأن الذي أعلمها بذلك هي دابة الأرض، ذلك المخلوق الضعيف، وتلك العصا الصماء التي تآكلت، فقد يبين ويدل الصغير والضعيف من هو أعلم منه وأقدر، بما يبين أهمية الانتباه في طلب العلم، وأخذه حتى من صغير الناس ومن ضعيف الأشياء، وما يحتقره الإنسان، مما يفيد أهمية التواضع في التماس العلم، وأهمية أخذ العلم من آيات الله تعالى المبثوثة في الكون.

كما يفيد هذا الحدث العظيم أن الجن بما حباها الله تعالى من العلم إلا أنها تجهل ما غيبه الله تعالى عنها، فإنهم قد اغتروا وتوهموا بأنهم يعلمون الغيب، مما ينبه الإنسان بأنه مهما بلغ من العلم والمعرفة فإن علمه محدود، وأن ذلك عطاء بفضل من الله عَزَّ وجل. فلا يغتر المؤمن بما بلغ فيه من الخبرة والعلم والمعرفة، والمال والفكر والجاه. فغرور الجن بعلمها للغيب، يقابله غرور الإنسان بقدراته، ومواهبه التي وهبها الله تعالى له، فيتوقع أنه هو الذي حصل على ما هو عليه، وأن إمكاناته لا تخذله أبداً، بينما المعطي والموفق هو الله سبحانه وتعالى.

وسمى الله تبارك وتعالى ما كانت فيه الجن من العمل بالعذاب وبالمهين ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ فاللبث يعني المكوث، والعذاب: أفاد قوة المشقة، والمهين أفاد وقوع الذل عليهم من الإنسان، فيعملون تحت إمرته، وهم يرون أنهم الأفضل كما أخبر سبحانه وتعالى عن محاجتهم بامتناعهم السجود لآدم عليه السلام، كما ورد في سورة الأعراف ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: وكان العذاب الذي عُذِّبُوا به مُكثُهم في الخدمة حولاً كاملاً بعد موت سليمان، وهم يحسبون أن سليمان حي[١] ويبين هذا التسخير: أن الله تعالى قد يُطَوِّع المتكبر للمتواضع. ويفيد هذا أن الغرور قد أوقع الجن في الحسبان والظنون الخاطئة، بما مكنهم الله تعالى من القدرات التي تجعلهم يعملون لسليمان تلك الأعمال المذهلة بالنسبة للإنسان، فتوهموا أنهم يعلمون الغيب. كما يبين هذا أن العلم الكامل عند الله سبحانه وتعالى، وأن الله عَزَّ وجل بحكمته زود مخلوقاته بما تحتاج إليه من العلم. وبالتالي فإن التَّعالُم أمر ومسلك خطير على من تعالم بما وهبه الله تعالى من العلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٢٤٠)

أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى طرفاً فاضلاً ومهماً من شأن نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه من شكر النعمة والطاعة والامتثال، وما أسبغ عليه سبحانه وتعالى من عظيم الإنعام، يبين عَزَّ وجل الطرف والوجه المناقض والمضاد، وهم قوم سبأ، الممثل للكفر والطغيان. فقال عَزَّ وجل ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ لقد كان لكم أيها الناس في قصة سبأ موعظة عظيمة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: المراد بسبأ القبيلة التي هي من أولاد سبأ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود[1] قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لقد كان لولد سبأ في مساكنهم علامة بينة، وحجة واضحة على أنه لا رب لهم إلا الله الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها[2] وبدأ البيان بأسلوب شد الانتباه ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ فإن في مسكن سبأ دلالة على قدرة ربكم عَزَّ وجل. وقد استهل البيان الكريم بلام القسم، الذي تصدر حرف التحقيق ﴿ لَقَدْ ﴾ الذي يفيد قوة التأكيد لما بعده من بيان بأن ﴿ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ فإن في مسكن قوم سبأ دلالة على قدرة ربكم جَلَّ في علاه. فشد هذا المطلع الذهن لتتبع السياق من أجل إدراك هذه الآية ومعرفتها.

فإن لهما بستانان عظيمان، عن يمين وشمال. وقد وردت تفاصيل في سورة النمل عن ما حباهم الله تعالى من الإنعام، ومن ذلك ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فقد حباها الله تعالى في ملكها من كل شيء يُمكنها من إدارة مملكتها، والمحافظة عليها. بما يفيد استيفائها لجميع مكونات الدولة، وما يحقق الاستقرار والرخاء والازدهار، مما جعلهم لا يحتاجون غيرهم في شيء. ولكنهم كانوا يعبدون الشمس من دون الله تعالى، كما ورد في سورة النمل، حيث قال تعالى عن الهدهد ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣١٩/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٤/١٩)

لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ فقابلوا النعمة بالكفر، وأسدلوها لمخلوق، وهي الشمس. فهذا شيء مما ورد في سورة النمل.

فيقول تبارك وتعالى ﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ﴾ لقد كان لسبأ في مساكنهم التي يعيشون فيها ﴿ ءَايَةٞ ﴾ دلالة ودليل وعلامة وحجة واضحة ظاهرة؛ تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى في إنعامه وفضله وبديع صنعه، فقد رزقهم الله سبحانه وتعالى ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي: على كل جانب من بلادهم بساتين وزروع عظيمة ﴿ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ ﴾ بساتين عن يمين البلدة، وبساتين عن شمالها، وكانت زاخرة بالخير، وقال الله تعالى لهم على ألسنة مَن أرسلهم إليهم من الرسل ﴿ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ ﴾ كلوا وتمتعوا بما رزقكم الله تعالى من الأرزاق الكريمة الطيبة ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ ﴾ واشكروا لربكم هذا العطاء، وذلك بطاعته فيما بينته الرسل لهم، ليشمل الشكر بالامتثال، وباللسان، وبالاعتقاد بأن هذا من فضل الله تعالى عليهم، وليس نتيجة جهدهم، واستحقاقهم.

وقد نسب الله تعالى الرزق وفعل الارزاق له عَزَّ وجل ﴿ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ ﴾ فهو الذي امتن عليكم بهذا الخير. وأن من موجبات الشكر وكمال النعمة أنه سبحانه وتعالى جعل بلادكم ﴿ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ ﴾ بما اشتملت عليه من تلك الجنان، وما فيها من المياه، ومن الفواكه والخضار والثمار، وأنواع الحبوب، كثرة ونوعاً، وظلالاً، وهواء، ونعيماً. وأنعم عليكم كذلك بقبول التوبة، والمغفرة لمن استغفر، وذلك ببيان ما اتصف به سبحانه وتعالى ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴾ أي: واسع المغفرة والرحمة لمن تاب ورجع إليه، ويعفو ويغفر بإحسانه وتفضله على عباده.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما كان منهم بعد هذا الإنعام العظيم، فقال تعالى ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ فبعد ذلك الإنعام العظيم؛ حصل منهم الإعراض عن الشكر بالطاعة والامتثال، والاعتقاد ﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾ فأعرضوا عن الحق، وهو الإعراض عما جاءتهم به رُسُلُهم من البينات والحجج والدلائل والشرائع، فدخلوا في الكفر. قال

وهب بن منبه اليماني رحمه الله تعالى: لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً، فكذبوهم[١] مما يبين وجوب الحذر من بطر النعمة، واستعظام الإنسان نفسه بما حباه الله تعالى من الخير، فيغتر، ويعتقد أنه حصل على ذلك بجهده، وينسى أن الله تعالى هو المتفضل عليه بما أعطاه وأحسن به عليه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما كان منه لهم من العقوبة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ والمقصود بالعرم: المياه، وقيل الوادي، وقيل الجرذ، وقيل الماء الغزير، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته[٢] قال علي بن أبي طالب عن ابن عباس رضي الله عنهم: أن العرم: الشديد. وقال ابن الأعرابي رحمه الله تعالى: السيل الذي لا يطاق[٣] فهو الشيء الذي لا يطاق. فعاقبهم ربهم تبارك وتعالى بأن أرسل عليهم جَلَّ في علاه سيلاً شديداً جارفاً، لا يطاق ولا يقاوم، ففتح عليهم سدهم الذي وفقهم الله تعالى لبنائه.

ونتيجة لهذا العقاب، فقد تبعه عقاب آخر، إذ تهدمت البيوت، وتغيرت البساتين ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فأبدلهم الله تعالى بتلك الجنتين اليانعتين، بالفواكه، وما طاب من الثمار والحبوب والخضار ﴿ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ جنتان قد اتصف ثمرها بصفة الخمط، من المرارة، إذ خالطه مالا يستطعمه ويتلذذ به الآكل له. وقيل في وصفه: أنها أشجار الأراك، وقيل: ذات الشوك، وقيل: كل نبت أخذ طعماً من المرارة[٤] فاستوفت دلالة الخمط صفة ما لا يُطاق طعمه، فلا يستطعمه الآكل له، فجميع الثمار أخذت هذه الصفة.

كما احتوت الجنتان على شجر الأثل ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قيل هو: الطرفاء، وقيل: يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمر[٥] والنوع الثالث من الأشجار هو السدر ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ وقد تم ذِكر السدر بالقلة، أي قلة أشجاره، على أنه أحسن الموجود مع قلته. وذلك عقاباً لهم على بطر النعمة، والكفر بمن أرسلهم الله تعالى إليهم من المرسلين. فكان الأجدر بهم شكر النعمة، بقبول الحق من الله سبحانه وتعالى، بما جاء به

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٢٤٩)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٤٠)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٣٠)

(٤) المرجع السابق (٦/٢٣٠)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٤٠)

المرسلون. مما يبين أن عاقبة المعصية هي زوال النعمة، أو تقليلها، أو تبديلها. وكما ينطبق ذلك على الأمة من الناس، فإنه ينطبق على الأفراد. مما يبين أهمية الطاعة والامتثال لله سبحانه وتعالى، وخطورة البطر، سواء كان على مستوى الفرد أو الجماعة، فإن الله تعالى لا يبالي بالعاصي مهما كان هذا العاصي.

ثم يذكر تبارك وتعالى علة وسبب تلك العقوبة القاسية بعد الرفاهية والنعيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ فذلك الذي أصابهم من الجزاء هو بسبب كفرهم، ثم يذكر تبارك وتعالى أن جزاءه العقابي كائن لمن كفر ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ وهو سؤال تقريري، يقرر به استحقاق الكافر للجزاء بالعذاب على كفره. وهو كذلك سؤال استنكار على شدة كفرهم، الذي تَطَلَّبَ قوة العقوبة. وكذلك هو نفي من أن الله تعالى يعاقب المطيع الشاكر. فدلالة ﴿ ٱلْكَفُورَ ﴾ تفيد المبالغة في كفرهم، أي شدة الكفر الحاصل منهم، وذلك بعبادتهم للشمس، وترك عبادة الخالق الذي أنعم عليهم بذلك الإنعام الكبير والعظيم. كما تضمن السياق أن الله تعالى لا يجازي بهذا الجزاء إلا الكافر بنعمته عَزَّ وجل. ففيه النفي من أن يجازي الله تعالى بمثل هذا الجزاء غير الكفور. ليفيد التحذير، سواء من كانوا في عهد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، أو فيما يكون من بعد ذلك، حتى قيام الساعة. ليفيد التحذير من التطاول بالكفر بنعم الله تعالى، والبطر بها. اللهم وفقنا لطاعتك وحفظ نعمك، وشكر نعمك جميعها يا رب العالمين، ولا تؤاخذنا بتقصيرنا، واهدينا ووفقنا لطاعتك بما يرضيك عنا يا رب العالمين، واغفر لنا وارحمنا.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد مما أنعم به على قوم سبأ، من سهولة تواصل القرى فيما بينهم وبين بلاد الشام. فقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ فسبأ في جنوب الجزيرة العربية، وبلاد الشام في أعلى بلاد الجزيرة العربية، ومع تلك المسافة الطويلة امتدت القرى ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي: بين سبأ ﴿ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي: بلاد الشام ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ قرى متواصلة بظهور بعضها لبعض، بسبب قصر المسافة بين تلك القرى لكثرتها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: القرى المتواصلة، المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، فحيث نزل وجد الماء والثمر، ويقيل في قرية، ويبيت في أخرى[١] بل حتى مسافة السير جعلها تبارك وتعالى بمقدار ما يحتاجه المسافر في سفره ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي: فجعلنا تقاربها بقدر حاجة المسافر، بحيث لا يجد المسافر ما يشق عليه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٥٤١)

في سفره، فإنها مُقَدَّرَه تقديراً ربانياً من الله سبحانه وتعالى. مما يدل على نعمة التقارب، ولطف الله تعالى ورحمته بهم وبغيرهم، وظهور حكمة تدبير الله تعالى وتقديره في معيشة الناس وتواجدهم.

بل تجاوز الإنعام إلى درجة تحقق الأمن في مسيرهم ليلاً كان أو نهاراً ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ سيروا في مسيركم بين تلك القرى ليلاً ونهاراً ﴿ءَامِنِينَ ﴾ فأنتم في أمن واطمئنان، بما يفيد انعدام الخوف من كل أسباب الخوف التي يمكن أن يخاف منها المسافر، فاستوعب ﴿ءَامِنِينَ ﴾ الأمن من حيث الماء، والزاد، والأمن من قاطع الطريق، ومن كل ما يأتي الخوف منه، فإنها نعمة ومِنَّة عظيمة. مما يبين أن تدبير الله تعالى يستوفي كل شيء يهم العباد من كل حاجة، ومن كل وجه، ومن كل صوب. فلا نعمة تحصل إلا وهي من عند الله تعالى، إذ يدبر الكون والعباد على نسق يتحقق به الخير للعباد والبلاد. مما يتطلب أهمية التفكر والتدبر في تحصيل إنعام الله عَزَّ وجل، فهو الموفق، وهو المنظم والمرتب بما يتحقق به الخير، وأن ما يعمل ويأخذ به الإنسان ما هو إلا من باب الأسباب فقط. بما يستوجب شكر العبد لله تعالى، والامتثال له.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣ ﴾

ومن البطر الذي أصاب قوم سبأ أنهم شبعوا من النعمة، ومن أمن البلاد، والأسفار بين القرى، حتى طلبوا أن يباعد الله تعالى بين تلك القرى المتواصلة، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ لم يشكر أهل سبأ تلك النعمة العظمة، بل سرى فيهم البطر والملل من النعمة ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ﴾ طلبوا زوال نعمة تواصل القرى، بتباعدها وتغيير مسافاتها. قال الطبري رحمه الله

تعالى: فقالوا: يا ربنا باعد بين أسفارنا، فاجعل بيننا وبين الشام فلوات، ومفاوز، لنركب فيها الرواحل[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنوا إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى[٢] مما يبين أن البعض ملول من النعمة، ويسأم منها. فعلي المرء أن يتنبه لذلك، ويتعظ بهؤلاء الذين أطغتهم النعمة.

ومن دقائق التفسير لقوله تعالى ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ما قاله ابن عاشور رحمه الله تعالى: والأظهر عندي أن يكون هذا القول، قالوه جواباً عن مواعظ انبيائهم والصالحين منهم، حين ينهونهم عن الشرك، فهم يعظونهم بأن الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية، وهم يجيبون بهذا القول إفحاماً لدعاة الخير منهم على نحو قول كفار قريش، كما ورد في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[٣] فيكون قولهم هو من باب التحدي لنعمة تواصل القرى، على أنها ثابتة لن تتغير، إلى درجة الطلب والمناشدة بالمباعدة على سبيل استحالة التغيير. ويمكن الجمع بين القولين: بأن هناك فئة مَلُّوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنوا إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى. وكذلك أن هناك فئة تصدوا لِرُسُلِهم، وقالو ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ جواباً عن مواعظ انبيائهم والصالحين منهم، وذلك من باب الاستخفاف، والتحدي. فيكون السياق قد استوعب الحالات التي كانوا عليها.

فيبين تبارك وتعالى ظلمهم لأنفسهم ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فلم يظلمهم أحد، بل ظلموا أنفسهم بالكفر، وبما طلبوا. ثم يخبر عَزَّ وجل بما كان منه جَلَّ في علاه ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جعلناهم عبرة لغيرهم، فصاروا أحاديثاً للناس، على سبيل العبرة، والخزي والعار الذي يلاحقهم، بتداول الناس لِمَا كان منهم وما كانوا عليه، فأصبح أمرهم أحدوثة بين الناس، يتناقلونه بينهم في مجالسهم، من جيل إلى جيل. ومما عاقبهم به عَزَّ وجل أن مزقهم، وشتت شملهم ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فمزق الله تعالى اجتماعهم، وأصبحوا مشردين بين القرى، ومتفرقين بعد نعمة الاجتماع ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن شأنهم هو آية وعظة وعبرة للمعتبرين ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل عبد يصبر في مواقع ومتطلبات الصبر، ويشكر في مواطن النعم،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٥/١٩)
(٢) الزمخشري، الكشاف (٥٧٣/٣)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤٥/٩)

فيصبر عند البلاء، ويشكر عند الرخاء. فحياة العباد واقعة بين الابتلاء بالنعمة التي تتطلب الشكر، وبين الابتلاء بالبلاء الذي يتطلب الصبر، فإن أصابه بلاء صبر ولزم الطاعة، وإن أصابته نعمة شكر ربه بأنواع الشكر، بالطاعة والامتثال، وأن يلهج لسانه بالشكر والامتنان لله العزيز الرحمن، وأن يعتقد بقلبه أن الخير نعمة من الله عَزَّ في علاه، وأن ما هو فيه من نعمة هي من الله تبارك وتعالى، وبفضل منه ورحمة وكرماً. فينسب النعمة لربه تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بما وجده إبليس من مطاوعتهم له، وصدق فيهم ظنه ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ صَدَّق عليهم إبليس ظنه الذي اعتقد فيهم، باتباعهم له. ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ فقد ظن بهم أنه إذا دعاهم للغواية يقبلونها ويتبعونه، فوجدهم كذلك كما ظن فيهم ﴿ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، لم يصدق إبليس فيهم ظنه. مما يبين أن غواية إبليس سهلة عليه لغواية غير المؤمنين، وأما الذين آمنوا فليس له عليهم سلطان كما قال تعالى في سورة الحجر ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ليس لك عليهم طريقة ولا حجة تغويهم بها، فحجته التي هي سلطانه من التزيين للمعاصي، وتزيين أمور الدنيا لإشغالهم بها عن طاعة الله تعالى وعن الآخرة، فإنها غير متحققة له في المؤمنين، فلا يستطيع أن يُغريهم فيُلقيهم في ذنب تمتنع وتنتفي به مغفرة الله تعالى لهم. فإنه ليس له القدرة عليهم في ذلك، ولا حجة يستطيع أن يُغويهم بها. فسلطان إبليس حاصل له على غير المؤمنين. ومن دقائق البيان أن ذلك ينطبق على قوم سبأ، وينطبق على جميع العباد. فيصدق ظن إبليس في غير المؤمنين، ولا يصدق على المؤمنين. بما يدل على أن الإيمان وقاية، وحاجز ومانع قوي للمؤمنين من إبليس لعنه الله تعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بالعلاقة والسبب والعلة والحكمة التي يكون بها سلطان إبليس على غيره من العباد ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ليس لإبليس على هؤلاء الكفار قدرة من التسلط عليهم في الأصل، لا بحجج، ولا بإكراه وإجبار، إلا بما يمنيهم ويعدهم غروراً لا حقيقة له، فتابعوه وأجابوه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ فهو بيان يفيد النفي على الأصل. ثم استثنى سبحانه وتعالى من الأصل ما تتحقق به الحكمة التي أرادها سبحانه وتعالى وهي ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ

﴿شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فالله سبحانه وتعالى يعلم حال كل فرد من عباده، ولكن لِيُظْهِر بهذه الحكمة الربانية حقائق الناس بالبينة والبرهان، فيجازي كلاً بما كان منه، وبالتالي كانت هناك فئتان متباينتان ومختلفتان.

الفئة الأولى: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ فالمؤمن بالآخرة، يخاف من حساب ربه له، ومجازاته، ويطمع فيما عند الله تعالى من الجزاء العظيم بدخول الجنة، فيؤمن بما يترتب على ذلك من الإيمان بالله تعالى، والمصير، بالتالي يؤمن بالمرسلين، وبما جاء من عند ربه سبحانه وتعالى، فيمتثل بما أمر، فلا يجعل لغواية الشيطان ووساوسه تأثير على إيمانه. وأما الفئة الثانية: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ وهو الذي في قلبه ريبة وشك من شأن الآخرة، أي: الذي في قلبه مرض. فيقوده ذلك الشك إلى الكفر، وعدم الطاعة والامتثال.

ثم يخبر عَزَّ وجل بأنه يحفظ على كل عبد ما كان منه، فيتجه الخطاب بهذا البيان إلى كل من يشمله الخطاب، وهم الناس جميعاً، وفي مقدمتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ وربك أيها النبي على أعمال عباده، وعلى كل شيء من خلقه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لها في كتاب، فلا يفوت عن علمه شيء أبداً، وبالتالي يحاسب ويجازي عباده بما كان منهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وورد الحفظ شاملاً ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ ليشمل حفظ أعمال العباد، وحفظ العباد، وحفظ أوليائه من مكائد الشيطان وغيره، وحفظ السماوات والأرض. فهو عَزَّ وجل حافظ لكل مخلوقاته بحفظه، فإن ربي تبارك وتعالى على كل ملكه حافظ له، وعليم به، فهو حافظ لدينه وللمؤمنين من أن يصيبهم سوء. فمن يحفظه الله تعالى فإنه لا يستطيع أن يخترقه أحد، أو أن ينال منه شيئاً إلا بقدر ما يُقَدِّرُهُ اللهُ تعالى.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار، ومنهم كفار قريش ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الكفار ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ادعو واطلبوا من معبوداتكم التي عبدتموها من دون الله ربكم، بأن يكشفوا الضر عنكم، وأن يحققوا لكم مطالبكم، فَيُنْعِمُوا عليكم بنعمة، أو أن يدفعوا عنكم نِقَمَةً.

ولم يحدد البيان الكريم نوع ما يدعون ويطلبون، ليشمل كل ما يطلبه العابد من معبوده وإلهه، ليظهر لهم عجز الهتهم، وتأكيد فقرهم لربهم عَزَّ وجل، وذلك لإقامة الحجة عليهم، وإبطال ما كانوا يعبدون من دونه عَزَّ في علاه، فيقول تبارك وتعالى عن معبوداتهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ليس لهم قدرة على جلب خير، ولا دفع شر، بل لا يملكون أصلاً شيئاً من مُلك الله تعالى في السماوات ولا في الأرض، ولو كان مثقال ذرة، التي هي أصغر الأشياء.

ثم يؤكد ويبين لهم سبحانه وتعالى بالنفي القاطع أن يكون لهم مشاركة في الخلق أو في التدبير ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ فليس لهم من مشاركة في خلق السماوات والأرض، ولا في الملك ولا في التدبير. ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ وليس لله تعالى مما تعبدون ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ من معين، يعينه على شيء. لأنه الغني عن كل مخلوق. وغيره فقير إليه في كل شأن وأمر، مهما كان صغيراً وحقيراً، فلا يتحقق إلا بمشيئته وإرادته عَزَّ وجل. فهو نفي لتصحيح وتصويب مفاهيمهم عن تلك المعبودات. وهذا التفهيم والتعليم والبيان هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يوضح لهم جهلهم، بالبيان والأدلة والبراهين المتنوعة في كتابه العظيم. حتى إذا عاقبهم يكون عقابهم بعد بيان، وبعد قيام الحجة عليهم، ليؤكد ربنا تبارك وتعالى كمال عدله حتى مع عباده. فإنه جَلَّ جلاله ليس بظلام للعبيد. فالحمد لله تعالى على فضله وامتنانه وعدله.

ثم يؤكد عَزَّ وجل ما سبق نفيه عن تلك المعبودات، وذلك بنفي حتى الشفاعة عنده عَزَّ وجل إلا لمن يأذن له جَلَّ في علاه. والشفاعة هي: طلب التجاوز عن عقاب المذنب على ذنوبه ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فلا يكون للشفاعة قبول عند الله تبارك وتعالى إلا لمن يأذن له الرحمن بالشفاعة ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إلا لمن يأذن له، ويرضى له عما يقوله الشافع، وفيمن يشفع. أي: لا يشفع إلا لمن سمح ووافق له الرحمن تبارك وتعالى أن يُشفع له. فيقبل الشافع والمشفوع له، فيسمح له بأن يشفع في المشفوع له. فمهما كان اهتمام الشافع بالمشفوع له، فلا يمكنه الشفاعة إلا إذا حصل على الإذن من الرحمن الرحيم تبارك وتعالى. مما يفيد: فكيف بمعبودات لا يرضى الله أن تُعبَد من دونه، وكيف بعابدين يعبدون غيره جَلَّ جلاله. فهو إبعاد لهم من الشفاعة، وعن أن يشفع لهم. قال السعدي رحمه الله تعالى: فإذا كان من يدعوه من دون الله تعالى لا مالكاً للنفع والضر، ولا شريكاً للمالك، ولا عوناً ولا ظهيراً للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء، وهذه العبادة ضلال في العقل، باطلة في الشرع[١] ففيه تفهيم للمشركين عن خسارتهم إن لم يقلعوا عن شركهم ويعودوا لتوحيد ربهم تبارك وتعالى، واتباع شرعه الذي جاءهم به رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨٧/٤)

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما يكون يوم القيامة من الفزع الذي ترجف وترهب منه القلوب والأبصار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ حتى إذا كُشِف وأُزِيل عن قلوبهم الفزع من الروع والخوف والهلع. ﴿ فُزِّعَ ﴾ فالفزع هو الخوف. أي: أُزِيل الفزع، الذي هو الكشف والإزالة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السماوات كلامه، أرعدوا من الهيبة، حتى يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود رضي الله عنه، ومسروق، وغيرهما، وذكر كذلك ابن كثير رحمه الله تعالى أنه قيل المقصود بهم المشركون عند الاحتضار، ويوم القيامة. وقيل: الملائكة. وقد اختار ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن الضمير عائد على الملائكة. هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه، والآثار[١] ثم ذكر رحمه الله تلك الأحاديث والآثار.

قال السعدي رحمه الله تعالى: يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر: أن تعود إلى أقرب مذكور. ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفُزِّع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسُئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل. أنهم يقرون بأن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل. وأن ما قال الله تعالى، وأخبرت به عنه رسله هو الحق، فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أن الحق لله تعالى، واعترفوا بذنوبهم[٢] ولعل هذا الاختلاف هو اختلاف توافق، بأنه يحصل هذا للملائكة، ويحصل كذلك للمشركين، فحصوله للملائكة هيبة، وحصوله للمشركين خوف وهلع. وبذلك يجتمع المعنيان. خاصة وأن السياق يجتمع فيه الأمران، باعتبار الضمير الذي ذكره القائلون بأنهم المشركين، وباعتبار الأحاديث والآثار التي ذكرها ابن كثير رحمه الله تعالى في كتابه، وترجيحه لذلك على هذا الاعتبار، وكذلك ترجيح ابن جرير رحمه الله تعالى.

فبعد أن يذهب ما غشاهم يسأل بعضهم بعضا ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ ﴾ فيتساءلون فيما بينهم، فيقولون لبعضهم البعض جواباً على تساؤلهم ﴿ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ ﴾ الذي قاله ربنا هو الحق، ثم يزداد تعظيمهم لله تعالى بقولهم ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ وهو العلي بذاته وقدره، ومنزلته، وبقهره وسلطانه، وتدبيره، وحكمه. ﴿ٱلۡكَبِيرُ ﴾ الكبير في ذاته وصفاته، والكبير على كل شيء، فليس هناك من هو أكبر منه عَزَّ وجل، فله الكبرياء جَلَّ جلاله، تنزهت ذاته وصفاته سبحانه وتعالى. فهناك في الآخرة يتفق العباد على أن الحق من الله

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٤٤/٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨٨/٤)

تعالى، ولا يختلفون كما كانوا في الدنيا، لمعاينتهم ما كانوا ينكرون، حتى أهل العذاب يرون ما هم فيه هو الحق لِمَا كان منهم، إذ لم يظلمهم ربهم بالعقاب والجزاء. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة وحُسن الخاتمة.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يخاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يسأل المشركين عن مصدر الرزق من السماوات والأرض، ليقررهم بالحقيقة التي يستوجب عليهم بها توحيد الله تبارك وتعالى، وإفراده بالعبادة. ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين وغيرهم من الكفرة ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من هو الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ سؤال يستثير الذهن والفكر، نحو إدراك الحقيقة، وما يتبعها من الإيمان ولوازمه من الطاعة والامتثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فهل هناك أحد غير الله تعالى يُنَزِّلُ عليكم الرزق من السماء؟ ومنه المطر، الذي تنبت به الأرض، ويخرج به الزرع والثمار التي تتغذون وأنعامكم بها، هل أحد يستطيع أن ينزل المطر من المخلوقين، وأن يُخرج لكم من الأرض ما تأكلونه وما تدخرون في بيوتكم؟ فهل هناك رب غير الله تعالى يخرج لكم ذلك من غير فعل منكم؟ فمن الذي يخرج لكم زروعاً مما تبذرونه من البذور الجافة التي لا حياة فيها، فتصبح تلك البذور مزروعات قد دبت الحياة في عروقها وأغصانها وثمارها؟ وهو سؤال استنكار وسؤال تقرير، يقررهم بما يدركونه، بأنه لا يرزقهم ذلك إلا الله تعالى. وهو في نفس الوقت سؤال استنكار عن مخالفتهم لما هو متقرر لديهم، فلا أحد يستطيع أن يقول أنا الذي أُنْزِل المطر أو أُخرج الزرع من الأرض، فكيف إذاً تنحرفون عن عبادته عَزَّ وجل إلى عبادة من لا يسمع ولا يعقل، ولا يمنع ولا يعطي.

بل ومن غزارة البيان إطلاق الرزق على جهة العلو، وعلى جهة الأرض ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ليشمل كل ما يأتي من العلو، سواء مما يُقَدِّرُهُ اللهُ عَزَّ وجل، ويأمر به، أو ما ينزل من المطر، أو جريان السحاب، أو ما تنقله الرياح من مكان إلى مكان، وكذلك ما للشمس من أثر على الإنسان والأشجار، وما يقدره الله تعالى بحكمته من السماء. وكذلك إطلاق الرزق على ما يخرج من الأرض، ليشمل الإنبات من الزروع والأشجار، وينابيع المياه، والأنهار التي يشرب منها الإنسان والدواب، وغيرها مما هو على الأرض من الدواب التي خلقها الله تعالى من غير ما إرادة من الإنسان، وكذلك لتستوعب المعادن والمياه والسوائل التي يستخرجها الإنسان من الأرض، أو من باطنها أو سطحها، أو ما هو في قمم جبالها، أو ما يجري فيها من الأنهار والبحار. وفي هذا استثارة الذهن نحو ما يراه ويسمعه ويحسه ويشاهده الإنسان، ليتعلم منه الحقيقة التي لا ينكرها العقلاء من جنس الإنسان، مما يفيد أهمية الدعوة والنصح والإرشاد والتعليم من خلال لفت انتباه المتعلمين إلى الحجج والبراهين الكونية، والتذكير بها، وتفصيل الحجج البيانية المتعلقة بها.

وبعد أن لفت الله تعالى عباده إلى الرزق ومصادره وأسبابه، انتقل البيان إلى تقرير الحقيقة بالإجابة التي هم لها عارفون ومدركون ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ قل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم: الله جَلَّ جلاله وهو الذي يرزقكم من السماء والأرض. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام، ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق إلى آلهتهم، وربما يتوقفون في نسبته إلى الله تعالى مخافة أن تقوم عليهم الحجة، فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن ذلك، فقال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾[١] قل لهم: إنه الله تبارك وتعالى الذي يرزق عباده من السماوات، ومما في الأرض. لينتقل بهم في تدرج إلى موقع الضلالة منهم، بأسلوب إظهار المفارقة بين حالهم وحال ما جاءهم به، وما يريد أن يقررهم به ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فيقررهم بأن أحد الطرفين والفريقين نحن أو أنتم على هدى، والآخر على ضلال، فهل الذي يُوحِّد الرزاق سبحانه وتعالى هو الذي على حق من الهدى، والهداية والصواب، أو الذي يُشرك مع الرزاق سبحانه وتعالى شركاء من خلقه ومن الجمادات؟ سؤال يُعيد الغافل إلى الحقيقة الظاهرة والواضحة بقوتها، والمجردة من كل لبس، وموافقتها للعقل والنقل بما هو واقع وحقيقة. مما يبين أن هذا الدين هو دين الحقائق، والحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، وأنه لا يدعو الناس للحق من غير بيان واضح بحججه ودلائله وبراهينه. ليتبين لكل عاقل أنه دين الله الحق.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٥/٤)

ومن غزارة البيان في الآية الكريمة ما ذكره علماء التفسير، قال القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ قال: هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: ثم أمره سبحانه وتعالى بأن يخبرهم بأنهم على ضلالة ولكن على وجه الإنصاف في الحجة[٢] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهذا اللون من الكلام يُسمى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تَغَيُّظ واحتداد في الجدال[٣] وهو نوع من أساليب المتاركة، التي يترك فيها الطرف الآخر للتأمل والتفكر. لأن في هذا اللون من الاحتجاج، ما يدفع الطرف الآخر للتأمل والتفكر بما بناه صاحب الحق من الإنصاف في التأمل والرجوع للحق طواعية. وفي هذه المنهجية الربانية في المحاجة، ما يعلم المؤمن كيف يقيم الحجة على خصمه، ويقرره بخطأ ما هو فيه. وكيف إذا جمع الإنسان ما يماثلها من أنواع حجج القرآن العظيم، فيتعلم منها منهجية القرآن الكريم في هذا الفن من المناظرة، وإقامة الحجج والبراهين. فإنه سيخرج بسفر عظيم من الأساليب.

ثم يتدرج البيان الرباني في المحاجة إلى نوع آخر، قد زخر بقوته وجلالته وعظمته، فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قل لهؤلاء المشركين: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ لن يسألكم الله تعالى عن شأن إجرامنا إن كنا مجرمين، بما يعني لا تتحملون أوزارنا عما نحن فيه إن كنا مجرمين ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ولن نُسأل عن ما أنتم فيه من الشرك والمعصية. فكل طرف سيتحمل ما هو عليه من خير أو شر. فلا ينالني من كفركم وعنادكم ضرر علي. ولا ينالكم مما أنا عليه ما يضركم.

وقد أطلق الجرم وأسنده على حال المسلمين ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ مع كون أعمال المسلمين مضادة للإجرام، لأنها تُمَثِّل منهج الله تعال، فهي التي تمثل الشيء المضاد للجرم. بينما أطلق على جرم المشركين: العمل ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ الذي هو الإجرام بعينه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمقصود: المهادنة والمتاركة، وقد نُسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف[٤] بما يفيد الحكمة في التعامل بما يحقق الهدف، ويتناسب مع الواقع آنذاك. ليعطي المؤمنين بياناً لأهمية الحكمة، بما يحقق المقصد، وهو جذبهم للإسلام،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٥/٤)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٥٩/٩)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٣٢٦/٤)

وترك الكفر، فإنقاذهم من الكفر هو الهدف من دعوتهم، وليس الانتصار عليهم، إلا بعد أن يتبين امتناعهم وتوليهم عن الحق، ومعاداتهم للإسلام والمسلمين.

ثم يتدرج البيان الرباني في المحاجة إلى نوع آخر، قد زخر بقوته وجلالة عظمته، فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم محذراً لهم ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ قل لهم يجمع ربنا بيننا يوم القيامة، حيث الفصل بين العباد ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ثم يحكم بيننا بالعدل، ليظهر الصادق من الكاذب منا، فيعاقب المكذب العاصي، ويثيب المؤمن المطيع ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وبدأ بالفتاح ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ﴾ أي: القاضي الذي يفصل ويحكم. فربنا هو الحاكم الذي يحكم بيننا بالحق والعدل الذي يمتنع فيه الظلم، لأنه سبحانه وتعالى هو ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذي يعلم ما كان منا، وما كان منكم. وورد ﴿ ٱلْفَتَّاحُ ﴾ وكذلك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد: امتداد دلالة القضاء، ودلالة العلم إلى أقصى غايته، فليس هناك قضاء أعظم وأعدل من قضاء ربنا سبحانه وتعالى، وليس هناك عالم أعلم من ربنا بنا عَزَّ وجل، فيكون ما يقضيه بيننا هو عين العدل وكماله وتمامه. بما يفيد الوعيد والترهيب لهم، مما هم فيه من الكفر.

ثم يتدرج البيان الرباني في المحاجة إلى نوع آخر، يظهر به ما هم عليه من الضلال، فقال الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ أروني وأظهروا لي بالحجة الذين ألحقتموهم بالله تعالى، وجعلتموهم شركاء له في العبادة. وفيه تعجيز لهم، بما يظهر لهم رداءة فكرهم فيما يشركون. كما ورد الطلب عاماً، ليشمل جميع أنواع الحجج التي تُثبت ما هم عليه من الشرك. هل خلقوا شيئاً؟ فأظهروه لنا. هل يدفعون ضراً؟ أرونا ذلك، هل يجلبون نفعاً؟ أرونا ذلك. فهو سؤال يندرج تحته العديد من التساؤلات المطالبة بالحجج والبراهين التي ليس عندهم منها شيء البتة، لتظهر لهم بهذه المحاجة بطلان ما هم عليه من الباطل بالعلم والدليل. ومن بديع البيان تكرار الأمر بالقول لهم ﴿ قُلْ ﴾ خمس مرات، وذلك لإظهار الاهتمام بالمقول الذي يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم لهم.

ثم يأتي النفي والردع لهم ﴿ كَلَّا ﴾ لا تستطيعون، ولا يوجد عندكم حجة، فبادرهم سبحانه وتعالى بالإجابة، لأنهم عاجزون عنها، فلن يأتوا بدليل، فمنحهم البيان النتيجة بالمحاجة، من أنه لا يمكن لهم ذلك، لينتقل بعده إلى التقرير بالحقيقة بعد تعجيزهم وتبكيتهم، وإقامة الحجة عليهم، إذاً ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

فالمعبود إذاً هو الله سبحانه وتعالى، بعد أن أظهر لهم بطلان ما يعبدون من دونه تبارك وتعالى بدلالة ﴿كَلَّا ﴾ التي أبطلت ما قبلها، وأثبتت ما بعدها، فأبطلت قدرات معبوداتهم من الأصنام، وحصرت الألوهية في العزيز الحكيم، المنفرد بالعزة ﴿ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي له كمال العزة جَلَّ جلاله. فهو العزيز والغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وهو كذلك منفرد بصفة ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ فهو الحكيم الذي له كمال الحكمة، وليس ذلك لغيره من الخلق. فإن الله تعالى متصف بالحكمة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ التي تعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، فهو حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

ثم انتقل البيان الكريم من إبطال شرك المشركين إلى الإخبار برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم في تدرج وتناسق يبني بعضه على بعض، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فرسالتك التي أرسلناك بها أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هي لكافة الناس جميعاً، فليست لقومك فقط، بل هي للعالم كله، بما يفيد عالمية الرسالة المحمدية. ففي ذلك إثبات رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات أنها لكافة الناس جميعاً، وأنها تنطلق من مكة، ثم إلى المدينة، ثم إلى أرجاء العالم. وقد ورد التعميم بدلالة ﴿ كَآفَّةً ﴾ التي تفيد وتعني العموم، ثم التعميم المؤكد لجنس الناس ﴿ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ بل وأكدها بالحصر ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فليست رسالتك لأحد دون أحد، أو لقوم دون قوم، أو لمكان دون مكان، بل للناس أينما كانوا، وفي أي زمن كانوا.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى مضمون الرسالة في أمرين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ مبشر لمن أطاع بعظيم الثواب، وهو الجنة، ونذير لمن عصى وتولى بأن عاقبته إلى جهنم وبئس المصير. ثم يخبر الله تعالى عن حال الناس تجاه ما جاءهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأخبر تبارك وتعالى بذلك لعلمه بما سيكون منهم قبل أن يكون، بأن أكثر الناس معرضون عن الحق، لأنهم لا يعلمونه، فيواجهون الحق بالتكذيب والإنكار، بما يفيد أن القليل هم الذين يصدقون بالحق ويؤمنون به، فلا يتكبرون ولا يعاندون الحق. وفي كثرة الكافرين آية إعجاز بما هو حاصل، فالمؤمنون أقل من الكافرين.

فأكثر الناس لا يعلمون بحقيقة حُكمه وحكمته، وتدبيره وأفعاله الْمُحكَمَة الجارية وفق ما يحكم به من العدل بالحق، وإرسال الرسل. مما يفيد أن من أدرك هذه الرسالة بالقبول والطاعة فإنه من العالمين للحق وقبوله، وأنه مُدرك بأن هذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق من ربه، وذلك لقوة مظاهره من الحجج والبراهين. وأن حكمة الله تعالى في اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم هي نعمة عظيمة، وأن حكمه عَزَّ وجل هو الذي يتحقق، وليس حكم غيره، ولا قوة غيره.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استثناء الأكثر جهلاً من الأقل عدداً، ممن اتصف بالعلم من أهل الإيمان والتصديق، وهم المؤمنون، فأكثر الناس لا يعلمون ما يعلمه أهل الإيمان. فقرر السياق والبيان بحرف ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ تقرير علم أهل الإيمان، وتصديقهم بما يأتي من عند الله تعالى، ونفى عن أكثر الناس الذين هم أهل الكفر من أن يتحقق فيهم العلم الذي أعلم الله تعالى به. ففي ذلك مدح للمؤمنين بتصديقهم، وتشنيع وذم للكافرين على جحودهم. وأنهم أهل جهل بمستقبلهم في الآخرة.

فأغلب الناس وأكثرهم قاصرون في علمهم على ما هو متعلق بمعاشهم، وهو الظاهر من الحياة الدنيا، فيعلمون الظاهر منها، وأما عن شؤن الآخرة وأمرها فإنهم عنها ساهون ومنغمسون في لهوهم، وجاهلون بها، فلا يتعلمون ما يحقق لهم الفوز بها، وإن علموا شيئاً فلا يأخذون به، لأنهم منشغلون بالدنيا ومهاراتها ومظاهرها.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما يقوله الكافرون عن يوم القيامة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيسألون سؤال إنكار، وتعجب، وإبطال منهم ليوم القيامة، وذلك حين يبعث الله تعالى الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء، فيقولون: إن كنتم صادقين أيها المؤمنون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فأخبرونا بموعد هذا اليوم. سؤال استخفاف، وتكذيب وإنكار. وبالتالي فإنه بناء على هذا الإنكار فإنهم ينكرون الحساب والجزاء والجنة والنار، وكل دعوة تدعوهم للإيمان بذلك. مما يفيد أنهم يعيشون في جهل مركب، ولا يريدون أن يغيروا ما هم عليه من الاعتقاد. مما يعلم الإنسان أن عليه الاستماع للقول، ثم تقييمه وفق أدلته وحججه، وليس وفق ما اعتاد عليه مما يجهل حقيقته، وليس ما المبادرة بالرفض للحق من غير تفكير وتأمل.

فيخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالذي يقوله لهم﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيأمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾ أي: لكم وقت مُعَيَّن ومحدد، ومؤجل ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فإذا جاء هذا اليوم فإنكم لن تستطيعوا أن تتأخروا عنه ساعة، كما أنكم لم تستطيعوا أن تستقدمونه قبل مجيئه. فلا يُؤَخَّر ساعة، ولا يُقَدَّم عن موعده. مما يدل على دقة موعده، وأنه حاصل لا محالة في الوقت الذي حدده تبارك وتعالى،

ولا يستطيع أحد من خلقه أن يقدمه أو يؤخره. وفي هذا تنبيه وتحذير لهم من ذلك اليوم، بما يفيد فإنه يلزمكم اغتنام الفرصة قبل مجيء ذلك اليوم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى بالمزيد عن عناد الكافرين، وبما سيكونون عليه يوم الحساب والجزاء، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن الذين كفروا قد تمادوا في غيهم وطغيانهم، فجاهروا بكفرهم، بل أعلنوا به ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ لن نصدق ولن نعتقد بهذا القرآن أنه من عند الله تعالى، وبالتالي فلا نؤمن بهذا القرآن، فنفوا بهذا الكفر أن القرآن العظيم هو من عند الله تعالى، ونفوا صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وبمجرد نفيهم الإيمان بالقرآن، يكون قد تحقق منهم التكذيب. ثم أتْبَعُوا كفرهم بالقرآن الإعلان عن كفرهم بما تقدم من الكتب، فقال الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولا نصدق ولا نعتقد ولا نؤمن بما تقدم هذا القرآن من الكتب.

ثم تنتقل الآية الكريمة إلى بيان حالهم يوم وقوفهم عند ربهم يوم القيام، فقال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم، وأيضاً يشمل كل مُخَاطَب بهذا القرآن الكريم ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وكيف لو ترى يا أيها الرسول، وأيها الْمُخَاطَبُون بهذا القرآن حال هؤلاء المعاندين المتغطرسين وهم واقفون يوم القيام عند ربهم، كيف يكون حالهم من الذل والمهانة، وهم ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

وقوف ذل ومهانة، وبؤس، لما كان منهم في الدنيا من التكذيب بكتاب الله تعالى الذي أنزل إليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وما سبقه من الكتب. بما يفيد بيان هول ذلك اليوم.

وفي دلالة قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ما يفيد ويعطي هيئة الإذلال، والتوبيخ، والانكسار، التي يكونون عليها، وحالهم فيما بينهم، وهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ يتحاورون بينهم، فيعيد بعضهم القول على بعض، على سبيل النقاش، وهو حوار تبريء حين لا ينفع التبريء ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ فيقول الاتباع، الذين كان حالهم في الدنيا الاستضعاف، يقولون ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ لقد كنتم السبب في كفرنا، ولولا ما تسببتم به لنا من الكفر، لكنا في زمرة المؤمنين الناجين من عذاب الله سبحانه وتعالى، ولكن كنتم الغاوين والمغوين لنا. فهذا قول المستضعفين للذين كانوا يعاملونهم بالكبر والبطر والإهانة لهم والاستضعاف، وكان الضعفاء حينها منقادون لأولئك المستكبرين طواعية منهم، رغبة منهم فيما عندهم. مما يفيد أن الإنسان على نفسه بصيرا، وأنها حجة واهية، ولا قيمة لها، فلكل إنسان ما اكتسب، فقد زود الله تعالى الإنسان بالعقل الذي يعرف ويدرك به الحق من الباطل. وبما يفيد التحذير من اتباع الفسقة، الذين يستعلون على غيرهم ممن هم أقل منهم في ذات اليد.

فيرد عليهم المستكبرون ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ فيتبرأ المستكبرون من المستضعفين ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ سؤال استنكار على قولهم، ينفون به عن أنفسهم أنهم كانوا مانعين لهم عن الهدى ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ ﴾ سؤال تبكيت وتكذيب لهم ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ هل نحن الذين رددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم أم أنتم الذين اخترتم اتباعنا؟ سؤال تقرير، يقررون به، أنهم هم الذين اختاروا مماثلة الأسياد. بما يفيد نحن لم نصدكم عن الهدى، ولم نمنعكم عنه بعد أن جاءكم الهدى، ولكنكم أنتم اتبعتمونا فيما كنا فيه، بما يفيد أنه كان بإمكانكم أن لا تتبعونا، فأنتم الذين اخترتم ذلك الخيار. ثم يؤكدون لهم أنهم كانوا في الدنيا مجرمين ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ فبإصراركم على الكفر، وترككم للهدى بعد إذ جاءكم يُثبت أنكم مجرمون بارتكابكم ما تستحقون به العقاب، لأن المجرم من ارتكب ما يستحق عليه العقاب.

ويستمر الحوار في تعليق التهمة على المستكبرين، أملاً في التخلص من العذاب الأليم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ولا زال المستضعفون يبررون كفرهم بأنه بسبب المستكبرين الذين استضعفوهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ وقال الذين استُضعِفُوا رداً على المستكبرين: هناك المكر منكم لنا من الاغراء والحيل والوسائل التي استخدمتموها معنا. وهنا لم يحدد المستضعفون نوعاً محدداً، أو أنواعاً من المكر، بل أوردوا المكر عاماً، ليشمل أنواعه المتعددة، بل وصفوه بصيغة المبالغة ﴿ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ما يفيد كثرته وتتابعه حتى أصبح في جميع الأوقات من الليل والنهار. وبما يفيد أن الذي صدنا عن الإيمان هو مكركم المتتابع لنا ليلاً ونهاراً، فلا تفوت عليكم لحظة إلا وأنتم تُخَادِعُونَنَا بالإغراء والحيل المتعاقبة، ثم عينوا وحددوا ما كان من المستكبرين لهم ﴿ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا ﴾ فقد كنتم تأمروننا أن نكفر بالحق، فنكفر بالله تعالى، وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا ﴾ ونجعل لله تعالى أشباهاً، مماثلين له، من الأصنام وغيرها.

وهنا حصل من الفريقين إضمار الأسف لِمَا كان مِن كفرهم الذي وقعوا فيه اختياراً من أنفسهم ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ فأضمروا في قلوبهم الندامة والحسرة والندم عندما رأوا العذاب أمامهم، وورد الإسرار عاماً، ليجمع أنواعه وأهدافه، فأسر كل فريق ذلك في نفسه، ولم يظهره للآخر. وأنهم أخفوا ما في نفوسهم عن غيرهم لخوفهم من الفضيحة. مما يفيد شدة الندم التي لا يمكن معالجتها، بل فات وقت العلاج، فليس ها هنا إلا الحساب والجزاء.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما كان من الجزاء ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فقد جعل الله تعالى بأمره أن توضع في أعناق جميع الكافرين الأغلال التي سيسحبون بها إلى النار، فشمل جميع من كفر، سواء كان من المستضعفين، أو كان من المستكبرين أو من غيرهم. فورد البيان الكريم بصفة الجمع للكافرين أجمعين.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال عدله، فيورده بسؤال تقريري، يقرر به عدله، وانتفاء ظلمه لمن كفر ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فهل تم جزاؤهم بغير ما يستحقون، سؤال لاستثارة الانتباه لعدله عَزَّ وجل. فإن جزاؤهم موافق ومتوافق مع ما كان منهم من الكفر والتكذيب بالآيات والحجج، وما جاء به المرسلون من الدلائل الواضحة البينة، فاستحق أولئك الكفرة ما أنذروهم الرسل منه، وتركوا ما بشروهم به، لمن اتبع الهدى. فاختاروا ما كان جزاؤه العذاب المهين. وفي هذا إعلام من الله تعالى لجميع العباد بما سيكون لمن كفر، بل بين لهم ما سيكون قبل أن يكون من الحوار بين التابعين والمتبوعين في الكفر. فإنه جزاء وفاقا.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

لَمَّا واجَه الرسولُ صلى الله عليه وسلم من قومه العناد والكفر، والمواجهة بالسخرية، يخبر الله تعالى أن حال المرسلين من قبل كان كذلك، بمثل ما هو عليه حال قومك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما كان يواجه المرسلون من أقوامهم، ويلاقونه من الكفر والعناد ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ وما بعثنا لأهل قرية من نذير من المرسلين، فينذرهم بأس الله تعالى وعذابه لمن كفر، ويبشر من أطاع بالجنة ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ إلا ويتزعم أهل الترف من أهل السعة والرغد، والغنى والوجاهة والرئاسة، وقادة الشر من الجبابرة، الذين استكبروا على غيرهم بما عندهم من الخير، إلا وتزعموا مناكفة المرسلين، وقالوا لرسولهم ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ إنا بما أرسلتم به أيها المرسلون مكذبون ومنكرون لجميع ما جئتم به، وبالتالي أصبحوا كافرين، أي: أنكروا وكذبوا، فدخلوا في فئة الكافرين الذين مصيرهم النار وبئس المصير. بل ومن قوة كفرهم أنهم لم يُسمُّوا الذي أرسلهم ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى، وكذلك لم يُسمُّوا ما أرسل المرسلون به من الله عَزَّ وجل، مكتفين باستخدام الضمير ﴿ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ ومن دقائق

البيان أن الآية الكريمة أفادت حصر زعامة المقاومة والتكذيب والكفر في المترفين الذين يتبعهم الغاوون. فأغنت مفاهيمها ودلالاتها عن الكثير من التفصيل، ومن ذلك أن المترفين يريدون بقاء زعامتهم، والمحافظة عليها، واستضعاف الضعفاء، ليكونوا في خدمتهم، وعلى منهجهم. وأنهم أول من يتزعم مواجهة الحق ورده.

وفي هذا الإخبار من الله تعالى لرسوله ما يشد به أزره صلى الله عليه وسلم، ويعينه على الصبر، فإن حال الأمم السابقة مع أنبيائهم هو الحال الذي يواجهك به قومك. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: هذه تسلية للرسول الله صلى الله مما مُني به من قومه، من التكذيب والكفر بما جاء به[١] مما يبين عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، ويعطي دلالة على أهمية تسلية المؤمن بالصبر مما يجده، وذلك بتذكيره بما يخفف عنه ما هو فيه، كتذكيره بغيره الذين عافاهم الله تعالى مما كانوا فيه، ليتقوى قلبه بالصبر على ما يواجه من المحن والمصائب.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن الشأن الذي عزز عند الكافرين ما اتخذوه من قرار كفرهم، وهو ما كانوا فيه من رغد النعمة، فقال تعالى ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فقال الكافرون المنكرون لِمَا جاء به المرسلون بأنهم أكثر أموالاً، وأكثر أولاداً ممن اتبع الحق. واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، وعنايته الخاصة بهم، فقاسوا ما هم فيه من الرخاء في الحياة الدنيا على قبول الله تعالى لهم، وعلى ما سيكون من حالهم في الآخرة إن كانت هناك حياة أخرى كما يذكره المرسلون. وبناء على هذا الفهم العقيم قرروا ما أثبته الله تعالى عليهم ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فنفوا أن يحصل لهم العذاب البتة.

فجعلوا ما هم فيه من النعيم دلالة على محبة الله تعالى لهم، ورضاه عما هم فيه من الشرك. مما يفيد أن الفهم الخاطئ يقود للنتائج الخاطئة، وبالتالي تكون القرارات الخاطئة، والمنحرفة عن الصواب، فإن الله تعالى يمد جميع عباده بالرزق، ولو جعل الرزق مقتصراً على المؤمنين لهلك أهل الكفر، ولما بقي منهم أحد، ولكن كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ﴾ مما يبين أهمية الفهم الصحيح ليكون القياس صحيحاً، وتكون النتيجة صحيحة، فيعقبها القرار الصحيح.

ثم يقرر سبحانه وتعالى لهم ولغيرهم حقيقة الرزق، وكيف يجب أن يفهموا حقائقه فقال تبارك وتعالى ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ قل لهم أيها الرسول ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ إن توسعة الرزق كائنة من ربي على من يشاء، ﴿ وَيَقۡدِرُ ﴾ ويضيق على

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٨١/٣)

من يشاء من عباده، وفق حكمته، وليس وفق محبته ورضاه، وبغضه. فإن رزق الله تعالى للكافر استدراجاً، كعقوبة له، فيزداد طغياناً ليزداد عذاباً. وللمؤمن ابتلاء واختبار، أيصبر فيزداد أجراً ومثوبة، أو يتعدى فيأثم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قد يرزق الكافر والعاصي استدراجاً له. وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير، زيادة لأجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له دلالة على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عمن قبضه عنه دليل على أنه لم يرض عنه، ولم يرض عمله. فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين، والمغالطة الواضحة[١] فلا يعني ذلك بغضه لمن قَدَرَ عليه رزقه، بل قد يكون عند الله تعالى المحظوظ بالإنعام يوم القيامة. ومثال ذلك الحدث الخاص بقارون الذي طغى وتجبر بما وَسَّع اللهُ تعالى عليه من الكنوز. بينما بسط الله الرزق والْمُلْكَ لسليمان عليه السلام فَحَمِد وشكر، ودعا إلى عبادة وتوحيد ربه تبارك وتعالى. بينما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أحب الناس لربه تبارك وتعالى، يقل عنده الرزق كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِض)[٢] وهو سيد ولد آدم، مما يُعطي عِلْمَاً دقيقاً في فهم دلالة الأرزاق، بأنها تحت مشيئة وحكمة الله تعالى، فهو أعرف بعباده، وأنها قد تكون ابتلاء، وقد تكون عقوبة، وقد تكون رحمة وإكرام سواء كان في السعة أو في التقدير. مما يفيد ويدل على أهمية العلم بالحكمة في توزيع الله تعالى للأرزاق. فإن في فهمها ما يضبط العقل والتفكير والقياس والسلوك والقرارات التي تنبني على الفهم الصحيح.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن جهل الناس بتقديره لأرزاق العباد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأكثر الناس لا يعلمون الحكمة من توزيع الأرزاق. وما فيها من الابتلاء والاختبار والتمحيص، وما فيها من الاستدراج، مما يدل على أهمية فهم حكمة الله تعالى في توزيع الأرزاق. فأكثر الناس يخطئون في فهم التباين في الأرزاق، وفي بسطه وتقديره. بما يفيد أن حالهم وتفاخرهم لا يدل على رضى الله عنهم، فقد نقض الله تعالى فهمهم، وأبطل حجتهم، وصحح لهم الفهم الصحيح الذي يجب أن يستوعبوه.

ثم يخبر سبحانه بدليل آخر على حكمته من بسط وتقدير الأرزاق، فليست الأموال هي المعيار في قُرب العبد من ربه، لتتخذوها قياساً، فتقيسوا عليها رضى الله تعالى وغضبه. فليس مكانة العبد عند ربه بماله، ولا بجاهه ومكانته ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ فليست منزلتكم عند ربكم بأموالكم ولا بعدد أولادكم، فالمقياس ليس بكثرتها وقلتها بالتي تقربكم منزلة عند ربكم عَزَّ وجل، بما يفيد نفي أن يكون فيض المال

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٣٠)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٤٣٠) برقم (٥٣٧٤)

وبسطه وتقديره علامة على المكانة عنده عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾ فليست أموالكم بالتي تقربكم عندنا ﴿ زُلۡفَىٰٓ ﴾ مكانة ومقاماً. وقد كرر سبحانه وتعالى النفي مرتين، لصنفين هما محل المفاخرة والتباهي والتعالي: فالأولى: نفي دلالة المال ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ ﴾ والثانية: نفي دلالة الولد ﴿ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم ﴾ وذلك للتأكيد، ولإظهار المظهرين وإبرازهما: لأن المظهر المالي يشكل أحد مقاييسهم في التفاخر والتباهي، وتحصيل المكانة، ومثله المظهر الاجتماعي بالمفاخرة بأعداد الأولاد وكثرتهم، لأنهما محل المفاخرة والتباهي في مقاييسهم الاجتماعية.

وبعد إزالة الجهل المركب من الأفهام الساقطة، بنفي الله سبحانه وتعالى علاقة كثرة الأموال وكثرة الأولاد برضاه عن من بسط له في ذلك، فيخبر سبحانه وتعالى بالمقياس الحقيقي الذي يُقرب الإنسان من ربه عَزَّ وجل، وهو ﴿ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ فالذي تكون له الزلفى هم فقط من صَدَّق فآمن بما جاء من عند الله تعالى، وكذلك عمل الصالحات التي هي الشريعة التي جاء بها الدين الحنيف ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ فأولئك الذين آمنوا وعملوا بدين الله تعالى لهم الثواب المضاعف، جزاء لهم بما عملوا من الإيمان والطاعة، بعمل الصالحات. وكذلك ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ أي: في غرفات الجنة العاليات ساكنون فيها بكمال الطمأنينة، فهم آمنون من كل ما يكرهون ويخافون، بما يفيد أنه لا يوجد في الجنة ما يكرهه أهلها، من جميع المنقصات والمكدرات، بل لهم فيها ما يشتهون ويتلذذون، ولا خروج منها ولا حزن فيها ولا هموم. فإن شأن الجنة هو نعيم مقيم. اللهم اجعلنا من أهل الجنة بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

ثم يذكر سبحانه وتعالى الذين يسعون في آياته لإرادة التعجيز والتكذيب، بأن هؤلاء في عذاب جهنم واقعون ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾ يذكر الله تعالى فئة من الذين كفروا، وهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أي: يسعون في تكذيب آيات الله تعالى، بالطعن فيها، والرد على ما فيها من الدلائل والبراهين، من أجل صد الناس عنها، ويرون أنهم يُعجزون الله تعالى في تحقيق رسالته إلى العباد. فيتوهمون أنهم بهذا العمل يحققون العجز عن بلوغ مراد الله تعالى. قال القرطبي رحمه الله تعالى: معاندين، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم(١) فهم يزعمون ويعتقدون أنهم يفوتون بأنفسهم من عقاب الله تعالى، وأنهم يحققون مرادهم من تكذيب آيات الله تعالى، بالإصرار على الكفر والعناد.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٦/١٤)

ثم يخبر الله تعالى أن عذاب الله تعالى مدركهم، ولن يفوتوا أبداً كما يتوهمون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ فأولئك المتصفون بتلك الأحوال والصفات فإنهم في العذاب مجموعون ونازلون فيه، فهم يُعَذَّبُون به. فإن ملائكة العذاب تُحضرهم إلى العذاب، وتقذفهم في نار جهنم وبئس المصير. ومما يفيد: دوام عذابهم الذي لا ينقطع. وفي هذا تحذير للكفرة من يوم القيامة، ومما يفيد أن عليكم تدارك أمركم وشأنكم في الدنيا، حتى لا يحصل لكم ما أخبركم به ربكم جَلَّ في علاه. وهذا الإخبار هو فضل من الله تعالى، لِمَا فيه من التحذير، فإن مَن يحذرك يريد بك الخير. وقد أظهر اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ التعيين بالتحديد، فأظهر استحقاقهم بما كان منهم، وأعطى مزيداً من التنبيه لهم، ولِمَا كان منهم، وما سيكون لهم من العذاب.

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ليخاطب الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم، على أنها اختصاص لمن رضى الله تعالى عنهم، ليصحح مفهومهم الخاطئ ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصحح معتقد الذين غرهم ما هم فيه من كثرة الأموال والأولاد، من أنها تعني في أذهانهم أن الله تعالى رضي عنهم فمدهم بمال وبنين. فإن الأمر ليس كذلك ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ ﴾ إن مبدأ الرزق من ربكم أيها الناس متعلق بحكمته، ومشيئته وتقديره عَزَّ وجل، وليس مرتبط برضاه سبحانه وتعالى لمن أكرمه وأنعم عليه بأنواع الرزق، ولا لسخطه على من قدَّر عليه رزقه. فقل لهم أيها الرسول ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ ﴾ إن توسعة الرزق كائنة من ربي على من يشاء ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ ويضيق على من يشاء من عباده، وفق حكمته، وليس وفق محبته ورضاه، وبغضه. فإن رزق الله تعالى للكافر استدراجاً، كعقوبة لهم،

فيزداد بها طغياناً ليزداد عذاباً. وللمؤمن ابتلاء واختبار، أيصبر على ما أصابه فيزداد أجراً وثواباً، أو يتعدى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قد يرزق الكافر والعاصي استدراجاً له. وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير، زيادة لأجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له دلالة على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عمن قبضه عنه دليل على أنه لم يرض عنه، ولم يرض عمله. فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين، والمغالطة الواضحة[١] فقياس العطاء في الدار الآخرة على العطاء في الدار الأولى قياس خاطئ، وظن فاسد. مما يفيد ويدل على أهمية العلم بالحكمة في توزيع الله تعالى للأرزاق. ففي فهمها ما يضبط العقل والتفكير والسلوك والقرارات التي تنبني على الفهم الصحيح. ولَمَّا أنه سبق أن ذكر سبحانه وتعالى قبل ذلك آية مماثلة وشبيهة لها في هذه السورة، فإنه يظهر هنا تقرير تلك الحقيقة، وتأكيدها، وبما يفيد أهمية أن يتقرر ذلك في ذهن العباد لما سيترتب عليها من الإنفاق، الذي يعتمد على الثقة فيما هو قادم، فإذا كان الرزق هو من الله الرزاق الكريم فإنه ينبني عليه بأن لا يخاف المؤمن من الإنفاق، فإن الذي أعطى هو الذي يُخْلِف بخير له مما أنفق في أوجه الخير ورحابه الواسع.

وبعد أن قرر سبحانه وتعالى حكمته في توزيع الأرزاق، وأنه هو الرزاق، يتدرج البيان إلى تقرير ما يعتمد على سلامة هذا الفهم، بأن ما تنفقون منه ابتغاء وجه الله تعالى فإنه يُخلفه، فإن ما يذهب من المال يأتي بغيره عَزَّ وجل، في تعاقب مستمر، فقال تعالى ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة واجبة أو مستحبة، أو مباحة ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فربكم الذي رزقكم، وهو الذي يعوضكم عما أنفقتم بأحسن منه، ومن ذلك تيسير سُبُل الرزق لكم. وفي جملة ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيان لعموم الإنفاق، لتستوعب به جملة ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ جميع الأصناف العينية، سواء كان من المال، أو الأشياء الأخرى، كالأطعمة، والأشربة، والأثاث، وجميع أنواع الأرزاق مما يحتاجه الناس. كثيره وقليله، ونفائسه وما دونه. كما أن جملة ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ تتضمن الترغيب، والتأكيد، والوعد منه سبحانه وتعالى بأن يُخلفه، بما يفيد التأكيد على العِوَض منه عَزَّ في علاه. فالمؤمن يثق بوعد الله تعالى، وبالتالي لن يتردد، بناء على ثقته فيما وعد الله تعالى به. ويبين هذا أن مما يرضاه الله تعالى ويحبه هو الإنفاق في الخير، والإحسان على الغير. مما يبين محبة الله تعالى للتآلف والتكاتف الاجتماعي.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٣٣٠)

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ذلك بما يُطَمِّع المؤمن في السخاء، وعدم الخوف من شأن الرزق ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فربكم عَزَّ وجل هو خير من يرزق، فليس هناك من هو خير منه سبحانه وتعالى، ليفيد المبالغة في الخير إلى أقصاه. وورد في الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكاً تلفاً) [١] وفي هذا استحثاث للمؤمنين على الإنفاق في حاجاتهم وحاجات غيرهم، ومساندة المحتاج بما يمكن من المساعدة، من جميع أنواع الصدقات، الواجبة، أو المستحبة، وعموم الإحسان، وفق شريعة الله تعالى، من غير إسراف، ولا تبذير. بما يفيد أن منهج الإسلام قائم على عدم احتكار المال، بل إنه ينمو ويزيد بالإنفاق. وهذا ينعكس على الحركة الاقتصادية، فيجعلها تزداد نمواً، وبالتالي ينتفع الناس من بعضهم البعض. لأن في حبس المال عن الانفاق ما يشل حركة الانتفاع وتباطؤ الاقتصاد بين الناس. كما أن الإنفاق يدل على قوة إيمان المؤمن، مِنْ أَنَّ الله سبحانه وتعالى سيخلف عليه بخير وفضل عظيم. وهذا يجعل قلب المؤمن مطمئن لشأن الرزق، فينغرس في قلبه حب البذل والسخاء، وإعانة الناس بما يستطيع.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى يوم الحشر، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ واذكر أيها النبي صلى الله عليه وسلم، وأيها الْمُخَاطَب ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ واذكر يوم الحشر، عندما نحشر التابع والمتبوع، والمستكبر والمستضعف، والعابد والمعبود، فجميعهم قد تم جمعهم يوم الحشر ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ثم تُسأل الملائكة عن الذين عبدوها من دون الله تعالى ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ سؤال يفيد التقريع والتوبيخ لمن عَبَدَ الملائكة، وهو سؤال ليس عن جهل الله تعالى بهم، فإن الله عَزَّ في علاه لا يجهل جوابه، ولكن لتقرير الحقائق، وإيقاع الحساب وفق البينات الْمُعلَنَة ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ فهل هؤلاء كانوا يعبدونكم من دون ربكم وربهم، وخالقكم جميعاً؟ وقد خص الله تبارك وتعالى الملائكة من بين جميع المعبودات، من الإنس والجن، والأصنام، وغيرها من المعبودات التي عبدها الناس من دون الله عَزَّ وجل. وذلك التخصيص لأنهم عالم لا نشاهده في الدنيا، فكيف عبدتم ما غاب عنكم، وتركتم عبادة الذي دلائله ظاهرة لكم حتى في أنفسكم؟

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٤٥/١) برقم (١٤٤٢)

وفي هذا الموقف ترد الملائكة، متبرئة منهم، ومما كان منهم ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ فبدأوا بتنزيه ربنا سبحانه وتعالى ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ نتزهك يا ربنا عن كل ما لا يليق بك، فالتسبيح يفيد ويعني التنزيه لله عَزَّ وجل ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ فيعلنون افتقارهم لربهم، وطاعتهم له عَزَّ وجل، فأنت يا ربنا الذي نتولاه ونعبده ونطيعه من دونهم، وبالتالي لا يمكن لنا أن ندعوا غيرنا لعبادتنا، ونحن الفقراء لولايتك. بما ينفي رضاهم عما كان يفعله أولئك الذين عبدوا الملائكة. فلم نتخذهم عابدين لنا، ولم نتولاهم بأي شيء، وليس لنا الحق في ذلك فليس لنا ولي غيرك يا ربنا.

ثم بينوا بتصريحهم عما كان أولئك يعبدون ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ ﴾ فإنهم كانوا يعبدون الجن، أي: إبليس وجنوده من الشياطين، فيأمرونهم بعبادتنا وعبادة غيرنا، فيطيعونهم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: الشياطين، وهم إبليس وجنوده، ويزعمون أنهم يرونهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله تعالى، وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام، ويخاطبونهم منها[١] ثم تُبَيِّنُ وتَذكُرُ الملائكة أن ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ أن أكثر المشركين مصدقين الجن فيما تقول وتزعم، فأطاعوها، وانقادوا إليها، مما يبين خطر الجن، واحتيالهم على بني آدم، وقيادة من يطيعهم إلى الكفر والفجور، وأنهم يكذبون ويغررون، ويزينون الشر والباطل لمن يتبعهم، وأنهم يَدَّعُون ما لا يعرفون، وما لا يستطيعون. مما يُوجِبُ الحذر منهم، ومن فتنتهم.

فلما تبرأة الملائكة من المشركين، وعبادتهم للملائكة، وأخبرت بما كان من الجن، وتلبيسهم، قال تعالى عن العابدين والمعبودين ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فاليوم الذي هو يوم الحشر والحساب والعذاب ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾ فاليوم أيها العابدون المشركون، ومن عبدتموهم في الدنيا ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا ﴾ فلا تستطيعون أن تقدموا لبعضكم البعض أي نوع من أنواع النفع، كالشفاعة ودفع الضر من العذاب وأنواعه ودرجاته ﴿وَلَا ضَرّٗا ﴾ وكذلك لا تستطيعون إضرار بعضكم بعضا، بالعذاب، والهلاك، والانتقام. وفي هذا إظهار عجزهم وقصور إرادتهم عن كل شيء، وتحقيراً وإذلالاً لهم، وإهانة.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٣١/٤)

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما يقوله للمشركين ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فنقول للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فاليوم ذوقوا عذاب النار التي كنتم تنكرونها، وتنكرون يوم البعث، والحساب، والجزاء. ومن دقائق البيان أن ورد الإحساس بالعذاب من خلال التذوق ﴿ ذُوقُواْ ﴾ لقوة دلالته على جميع أنواع الإحساس، وأوضح لهم أن تكذيبهم بالنار جعلهم يصلونها، ويتعذبون بما أنكروه وكذبوا به. مما يفيد التحذير والترهيب بالبيان والإخبار والوصف الواضح لما سيكون من حال الكافرين جميعاً. فعليكم بالحق بعد أن أوضحه لكم ربكم في الدنيا، قبل أن يعاملكم بما حَذَّرَكم منه رَبُّكم عَزَّ وجل. ويبين هذا أن الله تعالى لا يريد لعباده إلا الخير، ولكن أكثر الناس يأبون إلا الفجور، بالعناد للآيات والبراهين والحجج الواضحة البينة. ونسأل الله تعالى السلامة والغنيمة، والفوز بالجنة والنجاة من النار. اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، والهداية والتوفيق لِمَا تحبه وترضاه يا رب العالمين.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم من بيان كفر المشركين، وتباهيهم بأموالهم وأولادهم، ومصير حالهم يوم القيامة إلى بيان وكشف أسلوب تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وإذا تُليت آيات القرآن العظيم على هؤلاء المشركين حين نزولها، اتهموا الرسول في إرادته ونيته ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ فحين يتلو الرسول صلى الله عليه وسلم على أولئك المشركين آيات الله تعالى من القرآن العظيم حين نزولها، مع ما اتصفت به، من أنها ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي: الواضحات المعاني، والبينات الدلالات، بأنها من عند الله تعالى، فإنهم حين ذلك يزعمون كذباً وزوراً بقولهم ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ يقولون: ما هذا

التالي للآيات إلا رجل له أهداف وغايات بأن يحرفكم ويردكم عن الذي كان يعبده أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها.

ثم انتقلوا من الطعن في مراد الرسول صلى الله عليه وسلم وغايته إلى الطعن في القرآن العظيم ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ ﴾ يعنون به القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفۡكٞ ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا كذب ﴿مُّفۡتَرٗى ﴾ أي: مختلق، ومخترع، أي: ليس بكلام الله تعالى. فنفوا عنه حقيقته، لإقناع أنفسهم، وصد غيرهم عنه. مما يدل على أن المستكبر، والناكر للحق الواضح المبين يحاول إلحاق الباطل بالحق، وتصويره بأضداد الحقيقة، ويعاند في ذلك، من أجل أن يحقق مراده وهواه. مما يفيد أهمية الانتباه لمخاطر الاستكبار والتعالي، ومحبة الانتصار على الحق، بينما التواضع يجعل المتواضع يعترف بالحق أولاً، ثم يقبله، ويقدمه على ما كان عنده من الضلال.

ثم أردفوا بهتانهم وضلالهم وإضلالهم للحق بافتراء آخر، وهو السحر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فإن من أقوالهم في القرآن الكريم الذي هو الحق ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فوصفوا القرآن العظيم بأنه سحر، وبالتالي فإن الذي جاء به هو ساحر. فوصفوا ونعتوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر. بل وصفوه بأنه سحر واضح لا ريب ولا شك فيه ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ واضح لا مرية ولا شك فيه، وأكدوه كذلك بحصره في السحر ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ فليس هناك ما ينفي عنه السحر ويثبت أنه حق. بل هو السحر بعينه على حد بغيهم وزعمهم وبهتهم لكتاب الله تعالى. فقد تطاولوا في كفرهم، وقد سماهم الله تعالى بالكافرين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لبيان أن كفرهم هو الباعث لهم بهذا التكذيب، وبهذا الافتراء الباطل على الحق الواضح المبين. مما يفيد أن المتكبر والكاره للحق يجعل منه كفره واستكباره شخصاً متطاولاً على الحق الذي هو مُوقِن بأنه الحق الواضح المبين، ولكن استعلاء قلبه بالكبر يجعله، لا يحب إلا وأن ينتصر بالكذب والافتراء والبهتان. فنعوذ بالله تعالى من الكبر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن افتراءهم وكذبهم ما هو إلا أقوالاً لا مستند ولا دليل لهم عليها ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴾ فهؤلاء الذين يرمون القرآن بالسحر، والباطل، والكذب، واتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بالافتراء على الله تعالى، لم نأتهم بكتب يقرؤونها ويدرسونها من قبل، حتى يحكموا بها على ما جئتهم به. فما أنزل الله تعالى على العرب من كتاب قبل القرآن، ليعرفوا ويستدلوا به على ما يدفعون به ما جئتهم به ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴾ ولم نرسل إليهم نبياً قبلك أيها الرسول، فينذرهم بأسنا، فيحتجوا بأقواله وأحواله، فيستدلوا به على كفرهم بك وبالقرآن.

قال قتادة رحمه الله تعالى: ما أنزل الله تعالى على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وسلم[١] وبالتالي انتفت عنهم جميع الحجج التي يمكن لهم أن يستدلوا بها على صحة ما هم عليه من الشرك، ويطعنوا فيك، وفي كتاب ربهم سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن عاقبتهم وعاقبة الذين كفروا من قبلهم ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فيخبر الله سبحانه بالمقارنة بين كفرهم وبين من كفروا من الأمم السابقة ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ فقد كذبت الأمم السابقة من قبلهم بما أرسلنا إليهم من الرسل، وأهلكناهم ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴾ وما بلغ مشركي العرب عُشر ما آتينا الذين من قبلهم من القوة، وكثرة المال والولد، ومع هذا أهلكناهم ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فكذب أولئك الذين من قبلهم رُسُلِي فأهلكناهم.

ثم يوجههم سبحانه وتعالى إلى التأمل في كيف عقابه عَزَّ وجل لمن سبقهم من الكافرين ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي: فليتأملوا ويفكروا في كيف كان إنكاري على من سبقهم بما كان منهم من الكفر. فمعنى ﴿نَكِيرِ ﴾ الإنكار. فكيف كان إنكاري لهم بالعذاب، بما يفيد فليحذر هؤلاء من معاقبتي لهم بالهلاك بمثل ما كان لأسلافهم الذين كفروا برسلي. ومن دقائق البيان أنه لم يحدد لهم قوماً مُعَينين ممن سلف، بل ترك لهم النظر والتأمل، وذلك لكثرة الأمم التي جاءها عذاب الله تعالى بكفرهم للمرسلين من رب العالمين.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٢/١٩)

يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للمشركين من الحجج التي تبهتهم، وتقطع جميع ما يَدَّعُون من الباطل ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء المكذبين الجاحدين للحق ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ والموعظة هي ما تضمنت من البيان مع الترغيب والترهيب والتحذير، وتوضيح الشأن في موضوعها توضيحاً بيناً. أي: أعظكم بموعظة ونصيحة واحدة، أو بخصلة واحدة، بما يفيد أنها كافية في الرد على اتهامكم للقرآن بأنه سحر، واتهامكم لرسوله صلى الله عليه وسلم وتكذيبه. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن أداة الحصر ﴿ إِنَّمَآ ﴾ : أي: ما أعظكم إلا بواحدة، طياً لبساط المناظرة، وإرساء على الخلاصة من المجادلات الماضية(١) فهي معالجة لعنادهم، بالرجوع إلى التأمل والتفكر الصادق للإنسان مع نفسه، أو مع غيره من الناس، وسواء كان مع رجل عاقل منهم، أو مع أحد من المؤمنين، ليتفكر معه في الحقائق، ومناقشتها بعقل وتجرد من حظوظ النفس، ومن التجاهل، بعد تجريد النفس من الكبر والعناد، والانتصار لحظوظ النفس. أو أن يجلس مع نفسه، متجرداً للحق، ومستبعداً لكل مانع يصده عن الحق، من الضغائن والحسد، والكبر.

وهذه الموعظة هي ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ أن تنهضوا بهمة ونشاط، وتتأهبوا لتحقيق مراد الله تعالى، فتشمروا بالجد لطلب الحق خالصاً لله جَلَّ جلاله، فدلالة ﴿ لِلَّهِ ﴾ أي: من أجل الله وحده لا شريك له، بما يفيد أن تُخلصوا همتكم ونيتكم لربكم عَزَّ وجل، وتتجردوا مما في نفوسكم من الكبر والحسد، والحقد والكره، وان تستخدموا عقولكم فيما تسمعون من الحق، وتتفكروا فيه. ثم بين لهم المنهج الذي يستخدمونه في التفكر والتأمل ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ فتضمن منهجين لاختيار واحد منهما، أو العمل بالإثنين معاً، أو كبديلين متاحين للتأمل، سواء كانا مجتمعين أو منفردين: ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ أي: اثنين، اثنين، تتباحثون مجتمعين بتجرد من التعصب والكره والكبر، أو بمنهج الانفراد ﴿ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ منفردين، بحيث ينفرد كل واحد بنفسه، ويتحاور مع ذاته ونفسه وعقله فيما جاءكم من الحق.

ثم ذكر لهم موضوع التفكر والتأمل الذي يتفكرون ويتأملون فيه، وهو ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ثم تتفكروا لتعلموا بتفكركم المجرد عن الضغائن أن رسولكم صلى الله عليه وسلم ليس

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٩١/٩)

به جنون، بل يحمل لكم الصدق والحق الذي أمركم به. فيلزم أن يكون تفكركم بتجرد عن الضغائن والكبر والحسد والعناد، فتنظروا نظرة إنصاف وتعَقُّل، هل حقيقة أن محمداً صلى الله عليه وسلم به جنون كما تزعمون؟ أم أنه افتراء عليه، من أجل الانتصار. فهل هناك ما يدل على جنون فيه؟ أو أنه رجل كامل العقل والتعقل، ومنزه عن اتهامكم له؟ فهل قولكم له بالجنون حقيقة رأيتموها بدليل وحجة؟ أو أنها من باب رمي الاتهام، رغبة في الانتصار بأي وجه كان. فإن عملية التفكر مساحة واسعة، قد دلهم عليها منهج الله تعالى، لإقامة الحق في نفوسهم، بقناعة صادقة.

فإن التفكر هو تقليب النظر في الشأن والأمر والشيء، ليصل المتفكر بتفكره إلى الحقيقة التي يفكر فيها، وربط ذلك بجميع ما يتعلق به، مع البعد عن العواطف الكاذبة، والالتجاء إلى الحقائق ونتائجها. وهذا من كمال الإنصاف مع المحاور، ومع المدعو، ومع المنصوح، حتى يعود إلى رشده بطمأنينة وقناعة. وهذا يبين أن دين الله تعالى قائم على الإنصاف والعدل، وأنه قائم على الحقائق، وليس على التلبيس والمراوغة. كما أنه يُعَلِّم المنهجية الصحيحة في التفكير والحكم.

وفي جملة ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ تأكيد بأنهم سيتوصلون إلى أن رسولهم صلى الله عليه وسلم ليس به جنون، فهي تفيد أمرين: الأول: نفي الجنون عن الرسول صلى الله عليه وسلم. والثانية: الإثبات بأنهم كانوا يفترون على رسولهم صلى الله عليه وسلم الكذب الْمُخْتَلَق. ومن جليل الفوائد أن الله تعالى وصف نبيه صلى الله عليه وسلم ونعته لهم بأنه صاحبهم ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ ما يعطي دلالة قوة معرفتهم به، لأن الصاحب مخالط لصاحبه، فيعرفونه حق المعرفة، فلا تخفى عليهم حقائقه، من الأخلاق والعقل، وكمال السيرة التي لا يقدح فيها أحد، بل يسمونه بالصادق الأمين. وبالتالي فحاله معروف لديكم بأن ليس به مس من الجنون، بل أعقل من تعرفون من الناس. فالجهالة منفية عندكم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فالذي جاءكم به يستحيل أن يكون ممن به جنون، بل لا يمكن أن يكون إلا من أعقل العقلاء. وأنه صادق أمين كما عرفتموه من صحبته ومعاشرته لكم.

ثم انتقل البيان الكريم في تدرج حكيم إلى تقرير الحقيقة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فما هو إلا محذر لكم بما هو كائن لمن مات كافراً، وهو العذاب الشديد ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أن حصول العذاب الشديد قريب لمن كفر. لأن من معاني ودلائل ﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾ القرب، أي: قرب العذاب ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

ومن دلائل ودقائق البيان الكريم هو حصر ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في الإنذار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ ليست هناك غاية أخرى، ولا مطمع له في شيء غير إنذاركم من العذاب، وليفيد أيضاً خوفه عليكم من مغبة ما أنتم فيه من الكفر، لأن المنذر لغيره يحمل في نفسه الخوف على مَن ينذرهم، نتيجة خوفه من أن يمسهم الشر. خاصة وأن الله تعالى وصفه لهم بأنه صاحبهم ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ وخص الإنذار هنا دون البشارة، باعتبار الموقف الذي يحتاج إلى التحذير والترهيب والتخويف، وباعتبار أن من خاف الإنذار وعمل به، فإنه يتحصل على ضده من البشارة بالخير.

وفي هذا إعطاء العباد المنهجية في معالجة الأمور، وذلك بالتفكير الانفرادي، والتفكير المقتصر على الموثوق به في المحاورة حول الشيء والشأن المهم، وذلك بهدف الوصول إلى الحقيقة، وليس للانتصار، لأن لنوع الهدف والغاية من التفكير أثر في اتجاهه وصحته وسلامته وصلاحه. فمن كان تفكيره وتأمله في الانتصار على صاحبه، تمحور العقل والفكر في البحث عن وسائل وسبل الانتصار. ومن كان هدفه الوصول للحق والإنصاف تمحور تفكيره في البحث عن الحق. فنوع الهدف والغاية له الأثر البالغ في عملية التفكير ونتائجه. وإن من منافع ذلك أن مساحة تطبيقه تمتد في الإدارة عموماً، وفي العلاقات، وفي الاقتصاد، وفي الإنتاج، وفي اختيار الأكمل والأفضل، وفي إنصاف الآخرين، وغيره كثير. فإن صحة وسلامة الهدف والغاية تستوعب منهج السلامة والصلاح. فمن المهم تصحيح الهدف والنية ليصبح التفكير وفق الحق، ووفق المصالح الصحيحة. والحذر من أثر الهدف الفاسد على التفكير ونتائجه. ونسأل الله تعالى السلامة والهداية والتوفيق والرشد.

ثم يعزز سبحانه وتعالى صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وسلامة مقصده بتجريده من حظوظ النفس، وبالغاية والهدف السليم، الخالي من مطامع النفس، فقال تعالى موجهاً لنبيه صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فبعد أن تم نفي ما كانوا يرمون به النبي صلى الله عليه وسلم من السحر والكهانة والجنون، انتقل البيان إلى نفي ما يمكن أن يفكروا فيه، وينتقلوا إليه، من طلب المال والأجرة على ما يرشدهم ويدعوهم إليه، فقال تعالى ﴿قُلْ﴾ قل يا أيها النبي لهؤلاء الطاعنون فيك بالكذب والبهتان ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ لم اسألكم من أجر وثمن على ما أدعوكم إليه من دين الله تعالى. فإن سألتك شيئاً فهو لكم. فنفى بذلك الأجر والثمن من أصوله، ونفى أن يكون هناك هدف مالي يريد تحصيله منهم، أو رئاسة لجلب المال منهم. فإنه لا يرجو منكم فائدة من الأجور تعود عليه، فإن كان هناك نفع مادي لي منكم فهو لكم، فخذوه لكم إن كنتم تزعمون وتَدَّعُون أني سألتكم شيء من ذلك. وهذا من باب قطع التهمة من أصولها. وفي هذا البيان استباق المعالجة بما يمكن أن يكون. مما يفيد ويرشد المؤمن إلى أن يشد انتباهه لطرق المعالجة والمحاورة، وأن يسد الذرائع، وأن يدرك أهمية ما يمكن

أن يكون من المحاورين له، من خلال القياس على غيره من الطرح، ومعالجته بحكمة وبصيرة، مع التأهب له حتى يتم تفادي المفاجأة.

ثم يبين لهم مصدر الأجر الذي يأمل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يناله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فأجري على الله تعالى وليس على غيره، فهو الذي أطمع فيه. فَيُظْهِر لهم بذلك حقيقة الإخلاص في دعوته لهم، بأنه لا يأمل أجراً إلا من الله سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وأنه سبحانه وتعالى هو الشاهد على كل شيء، فلا يغيب عنه شأن، فهو شاهد عليكم، وشاهد عليَّ، وسيجازي كل واحد منا بحسب ما كان منه. وفي هذا ترغيب وترهيب لهم. ترغيب في طاعة الله تعالى، وترهيب لهم من العناد والكفر.

ثم يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للكفرة المشركين، من القول الذي يبرهن لهم به صحة الحق وقوته في إبطال الباطل ودحره، فقال عَزَّ وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قل يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، الذين يطعنون فيما جئتهم به من عند الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ إن ربي يبهت ويهلك الباطل بالحق، فيدمغ ويُفْسِد الباطل بحجج الحق التي تكشفه وتُعريه وتفضحه، فتهلكه وتدمره.

ومن دقائق البيان وعظيم فوائده أن ورد إيقاع الحق على الباطل بدلالة القذف ﴿يَقْذِفُ﴾ التي تفيد الرمي بشدة وقوة، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ وبالتالي فإن انتصار الحق متحقق تمام التحقق. والوسيلة التي يُقْذَف بها الباطل هو الحق ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ وميزة الحق الظهور والوضوح مع القوة، وهو الذي لا تعارضه العقول والنفوس الصافية، والمقذوف هو الباطل الذي ورد بصيغة العموم، ليستوعب جميع أنواعه ومستجداته إلى يوم القيامة. بما يجعل الباطل ينطوي، وينقمع، ثم يتلاشى، حتى لا تكون له قوة أمام الحق. وبالتالي فلا قدرة لأهل الباطل أن يجادلوا الحق، ويحاربوه. وفي هذا إعلان لأهل الباطل بأن باطلهم لن يسود وينتصر على الحق، حتى وإن كثر الباطل، فلا يمكن له أن يهلك الحق وينتصر عليه. ومن آيات الله تعالى في ذلك أن أهل الباطل أكثر من أهل الحق، وبالرغم من ذلك فإنهم لا يستطيعون إخماد الحق، ولا إيقافه، بل إنه مستمر إلى درجة مروره بينهم، ويعتنق الإسلام بعض الكفرة، بالرغم من أنهم يعيشون في مجتمعات تبذل جهدها في محاربة الإسلام.

وفي هذا بيان للمشركين ولعموم الكافرين ولمن بعدهم بأن الله تعالى يقذف بالحق الذي هو القرآن الكريم، وبجميع ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد أنه سينتصر عليكم وعلى باطلكم. وبالفعل

انتصر الحق، فكانت هذه الآية آية إعجاز، وحجة ظاهرة بينة لقوة الحق الذي يقذفه الله تعالى به على الباطل وأنواعه فيدمغه. وهي جديرة بأن تكون قاعدة عند المؤمن. فإذا واجهه الباطل قال ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فيصدح بالحق أمام الباطل. مما يدل على أن الباطل بجميع أنواعه لا يصمد أمام الحق، بل يضعف ويتلاشى، مما يبين للمؤمنين أن عليهم التزام الحق والعدل، حتى ينصرهم الله تعالى به.

ثم يبين سبحانه وتعالى لعباده عظيم علمه، بأنه لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء كما يخفى على غيره من خلقه. فهو العالم بما يغيب عن غيره من المخلوقات. بما يفيد ويُعَلِّم العباد بأن لا يَقيسوا علم الله تعالى على علم المخلوقات؛ فيحصل الهلاك في العقول والفكر، ثم يقع الفساد في الاعتقاد والتصرف. ومن دقائق البيان أن ورد ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بصيغة المبالغة، فدلالة معنى ﴿عَلَّٰمُ﴾ تفيد المبالغة في وصول علم الله تعالى لكل شيء، فلا يغيب عن علمه ولو أقل من مثقال الذرة، وسواء في الأرض أو في السماء، كما ورد الغيب بصيغة الجمع ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ليفيد سعة علمه لكل غائبة، وبالتالي فلا غيب على الله تعالى، فكل غيب هو ظاهر له عَزَّ وجل، حتى ما تخفيه القلوب، وتكنه الصدور.

ثم يأمر الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يُعلن به انتصار دين الله تعالى وظهوره وبروزه وتمكنه، وبالمقابل يتلاشى الباطل الذي هم عليه ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لأولئك المعاندين، المجاهرين بمحاربة دينه القويم ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وصل الحق إلى مراده، وتحقيق مبتغاه، وهو الإسلام وتشريعه، والتوحيد والقرآن وبراهينه وحججه. وقد تكرر البيان الكريم بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ لإفادة الاهتمام بالمقول، وبالرسول الذي أُمر به. وفي قوله تعالى ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ تأكيد لقوله عَزَّ وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

ثم عطف تبارك وتعالى على مجيء الحق ذهاب الباطل وتوليه، فقال تعالى ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ فذهب سلطان الباطل، وفسد واندحر أمره، واضمحل وتلاشى، فلم تَعد له ولاية ورئاسة. ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ فلن يعود أبداً بعد هلاكه بالحق. وورد البيان في تسمية الذي اندحر وانهزم وتلاشى بدلالة

لفظة ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ ليشمل جميع أنواع الباطل. وبالفعل ذهب الباطل من مكة حفظها الله تعالى، ولن يعود إليها الشرك، بل وذهب الكفر وتلاشى بالفتوحات الإسلامية.

مما يفيد أن الحق إذا جاء، ظهر وبرز، وتلاشى الباطل وتآكل، لأنه لا يقوى على الصمود أمام قوة الحق، وعلى مواجهته، لأن الحق يكشف ويُعَرّي الباطل، ويدحره، فتزداد الأمور ظهوراً بأضدادها القوية، وهذا يعطي قاعدة، بأنه إذا ظهر شيء من مفردات الباطل فإنه يتلاشى بإظهار الحق أمامه، فإنه لا يستطيع مقاومة الحق، كما أن الناس سَتُقبِل على الحق، وتذهب عن الباطل وتتركه وتهجره. فهو أسلوب قوي ومؤثر وفعال في معالجة جميع أنواع الباطل.

وبعد أن تبين الحق بما أظهره الله تعالى؛ وبينه لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأوضحه لهم بآيات وحجج الله جَلَّ في علاه، انتقل الحال معهم إلى متاركة جدالهم، فقال تعالى ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ قل يا أيها الرسول لأولئك على سبيل الإرشاد ﴿إِن ضَلَلْتُ ﴾ إن كنت قد انحرفت عن الحق ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ فإن ذلك الضلال الذي تنسبوه إلي، إنما يقع أثره وعقوبته على نفسي، وليس عليكم ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ وإن كان الذي أصابني هو الهدى من الحق، فقد اهتديت إلى طريق الحق والصواب، وذلك بفضل ما أوحاه الله تبارك وتعالى إليَّ من الحق والهدى. ومن دقائق البيان الكريم وفوائده الجليلة أن دلالة ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ أفادت التقرير بأن الذي أنا فيه وعليه من الهدى هو بوحي من الله عَزَّ وجل، وليس من عندي، فأفاد أن الأصل والحقيقة التي أنا عليها هو الاهتداء، بدليل اقترانه بالوحي ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ فليس بشيء من عندي، ومن اجتهادي، بل هو مُرْتَكِزٌ على الوحي الذي يُوحيه اللهُ تبارك وتعالى إليَّ به.

وبالتالي فإن قوله ﴿إِن ضَلَلْتُ ﴾ فهو بحسب ما يزعمون ويفترون زوراً وبهتاناً، فهو اتهام منهم مخالف لِمَا يُوحي الله به إليه عليه الصلاة والسلام. وكذلك من دقائق البيان الكريم قصر الضلال على النفس ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ فضلالي مقصور على نفسي، وليس عليكم منه شيء. لأن محاولتهم كانت متمحورة ومنصبة على إيقافه صلى الله عليه وسلم عن دعوتهم إلى دين الله تعالى، وعن مجادلتهم، والرد عليهم. كما أن حرف

﴿إِن﴾ من الآية الكريمة ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي ﴾ ما يفيد إن كان هناك ضلال كما تدعون وتزعمون، بما يضاد الأصل الذي أنا عليه، والذي هو الاستقامة، المنفي عنه ومنه الباطل والضلال، فإنما يقع أثره على نفسي، ولي عليكم.

ثم يقرر صفتين من صفات الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾ إن ربي متصف بكمال السمع لكل ما يُقال، ليجمع بهذا البيان ما يقوله صلى الله عليه وسلم، وما يقولونه، سواء كان سراً، أو علانية، وكذلك فإن قضاء ربي وأمره ﴿قَرِيبٞ ﴾ فهو قريب من كل متكلم وداع يدعو ربه، فيسمع ويقضي ويحكم بما يشاء، وقضاؤه قريب، وليس ببعيد في حصوله وسرعته، وتقديره. بما يفيد الإنذار لهم بما يقضيه الله سبحانه وتعالى على الكافرين الصادين عن الحق. وفي هذا التوجيه من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يفيد قوة عناية الله تعالى برسوله عليه الصلاة والسلام، وتسديده له، بما يفيد أن من كان مع الله تعالى؛ كان الله عَزَّ وجل معه بالتسديد والتوفيق للخير، وصد أنواع الشرور عنه من حيث لا يحتسب، فيهيئ له الأسباب الجالبة للخير، والمانعة من الشر.

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

يخبر الله عَزَّ وجل عما يكون من حال الكفار عند رؤية عذاب الله عَزَّ وجل، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، وجميع المخاطَبين. فالخطاب لا يمنع أن يكون لكل أحد، إذ من براعة سياقه أنه يستوفي أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل أحد من الْمُخَاطَبين. ولو ترى يا أيها الإنسان حال فزع المجرمين عند رؤيتهم مشاهد العذاب ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ ﴾ لو أنك ترى حالهم، وهذا لإفادة تعظيم وتهويل ما سيكون من حالهم يوم القيامة ﴿إِذۡ فَزِعُواْ ﴾ وهو شدة الخوف مما هالهم من قوة العذاب وشدته، واقتصر السياق على بيان فزع الكافرين بما يستحقون من الإذلال الخوف والفزع، ليعم ويشمل فزعهم حين قبض أرواحهم، وفزعهم في القبور، وفزعهم حين خروجهم من القبور، وفزعهم عند معاينتهم لعذاب الله تعالى يوم القيامة، فشملة الدلالة جميع الأقوال لأهل

العلم الذين ذكر أقوالهم القرطبي رحمه الله تعالى، وغيره من علماء التفسير[١] مما يدل على تعدد الفزع لهم، فهو ملازم لهم في أحوال تنقلهم من حال إلى حال.

ومن جلال الاسلوب أن مطلع البيان كان بجملة ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ ﴾ لتفظيع وتهويل صورة وهيئة الموقف للذين حق عليهم الفزع ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ ﴾ أي: المذنبون بكفرهم، وذلك لِمَا ارتكبوه من جرائم الاعتقاد والأقوال والأفعال العظام.

فحين حصول الفزع لهم في مراحله المتعاقبة، بداية من فزع الموت، فإنه ﴿ فَلَا فَوۡتَ ﴾ فلا نجاة ولا انفلات، ولا مهرب ولا فَوتَ لأحد منهم ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ إي: وأخذوا إلى العذاب من موضع قريب التناول، وكل موضع هو قريب بأمر الله عَزَّ وجل، فلا شيء بعيد عن قدرته جَلَّ جلاله. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: من ظهر الأرض، أو من القبور، أو من موقف الحساب، وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله تعالى قريب، لا يبعدون عنه ولا يفوتونه[٢] فكل مأخذ لهم من الله تعالى فهو قريب. مما يفيد التحذير لكل كافر من أحوال الفزع التي سيمر بها من كفر بالله تعالى، فليغتنم فرصة الحياة الدنيا، قبل رحيله منها. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى إذ يبين وينذر ويحذر بالحجج والبراهين عن حقائق الدنيا والآخرة.

وفي تلك الحال التي يعاينون فيها حقائق الآخرة، وما فيها من عذاب، فإنهم يقرون بالإيمان، ولكن بعد فواته ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ آمنا بما كفرنا به في الدنيا من حقائق الإيمان ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ فمن أين لهم أن ينالوا ما فاتهم من الإيمان، فالتناوش هو التناول. قال ابن السكيت رحمه الله تعالى: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشه، ينوشه نوشاً[٣] وهو سؤال تبكيت لهم، وإنكار، لاستحالة تحصيله، فكيف يطلبون أمراً قد انتهى تحصيله وتناوله. فقد كذبوا به وتركوه في الدنيا، حيث ذلك هو موضعه ومكانه الذي كان مطلوباً منهم، فكيف يحصلون عليه عند معاينة العذاب، بما يفيد الحسرة والندامة التي يكونون عليها.

فإن حالهم هو حال طالب الخلاص مما يعاينون من العذاب الذي يأتيهم ﴿ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ ﴾ فكيف يتناولونه من مكان بعيد؟ كيف يتناولونه من الدنيا البعيدة، التي قد انتهت، فابتعدوا عنها بعداً لا رجوع لهم إليها.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠١/١٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٣٥/٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠١/١٤)

فإنها الحقيقة التي يذكرها الله تعالى للعباد، وكأنهم يرونها أمام أعينهم، قبل مجيء أصحابها لها. مما يفيد التحذير والترهيب بالبيان والإخبار والوصف الواضح لما سيكون من حال الكافرين جميعاً. فعليكم بالحق بعد أن أوضحه لكم ربكم في الدنيا، قبل أن يعاملكم بما حذركم منه ربكم عَزَّ وجل. وهذا يبين أن الله تعالى لا يريد لعباده إلا الخير، ولكن أكثر الناس يأبون إلا الفجور بالعناد للآيات والبراهين والحجج الواضحة البينة. ونسأل الله تعالى السلامة والغنيمة، والفوز بالجنة والنجاة من النار. اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، والهداية والتوفيق لما تحبه وترضاه يا رب العالمين.

فكيف يحصلون على النجاة وقد أنكروا جميع حقائق الإيمان ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فقد كفروا في الدنيا بما آمنوا به اليوم ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ فالذي كفر به الكافرون هو تكذيب المرسلين، والتكذيب بالحجج، وبالبعث بعد الموت، ونكران الآخرة، والحساب والجزاء، وكذبوا بالشرائع، وأفادت ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي: حينما كانوا في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فاستخدموا رمي الغيب بنكرانهم له، فيرمون الغيب بالكذب، فيقولون: لا بعث ولا نشور، ولا قيامة، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة، ولا نار. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فيرمون بالغيب من جهة بعيدة عن إصابة الحق وتحصيله، فمن يريد أن يرمي شيئاً بعيداً فإنه لا يصيبه، ولا يُحَصّله، فهؤلاء يرمون الغيب بالتكذيب والنكران، بما يفيد مباعدتهم وتباعدهم عن الحق، لأنهم لا يريدونه، وفي المقابل قربهم الملاصق للباطل الذي كانوا يريدونه ويهونه، ويقاتلون من أجله. فهو وصف وبيان لحالهم ببيان دقيق بليغ من كل وجه.

ثم يخبر الله تعالى أنه أبطل مردهم من التوبة والإيمان، فحال بينهم وبينها. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾ وحيل بين الكفار وبين ما يشتهون ويتمنون من أسباب النجاة من العذاب بالتوبة، والعودة إلى الدنيا، كما ورد في سورة السجدة ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فيطلبون من ربهم العودة إلى الدنيا ليمتثلوا بالطاعة ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ومنعوا من النجاة من العذاب، فالذي كانوا يشتهونه ويتمنونه هو العودة إلى الدنيا ليمتثلوا بالطاعة، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ فمنعوا كما مُنع ﴿بِأَشْيَاعِهِم ﴾

أي: نظائرهم، المماثلين لهم في الكفر من الأمم السابقة، لأن الأشياع هم المتوافقون في النحلة، والمتابعون لهم في الكفر والحلف والملة والرأي.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى علة وسبب الحكم بعدم تلبية ما يشتهون ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبِۭ ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك، متصف بالارتياب، فَوُصِفَ شكهم بالريبة، للمبالغة في صورة وهيئة شكهم، فتم وصفه بأنه ﴿مُّرِيبِۭ ﴾ ممتلئ بسوء الظن، فشكهم لِمَا في قلوبهم من الريبة والظن السيء. مما يفيد أن الظنون السيئة تملأ القلب شكاً، فيتعامل بسوء الظن، فيبتعد عن الحق. مما يبين خطر هذا المسلك في حياة الإنسان وتعاملاته وتصرفاته. اللهم إنا نسألك اليقين والثبات على الحق، وحسن الخاتمة بفضلك ومنك وكرمك يا رب العالمين.

تم بحمد الله إتمام سورة سبأ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله.